
كتب ثقافية
مختارات
من القصص الروسي
ترجمة : سليمان يوسف سليمان

كتب ثقافية





# مختارات من القصص الروسي

ترجمه

سليمان يوسف سليمان

# مابعد الحفل الراقص

## بقلم تولستوى

« تقول أنت اذن أن الانسان لا يمكن أن يحكم حكمامستقلا على ما هو خير وما هو شر ؛ وان المسألة كلها مسألة بيئة ـ وان الانسان من خلق البيئة ولكننى أرى أن المسألة مسألة ظروف ؛ واليك ما أقول عن نفسى ... »

هذا هو ما قاله صديقنا المبجل ايفان فاسيليفتش فى ختام نقاش دار بيننا عن الحاجة الى تغير البيئة والظروف التى يعيش فيها الانسان قبل أن يكون ثمة قول عن تحسين الفرد . وفى واقع الأمر لم يقل شخص ما انه من المحال على الفرد ان يحكم حكما متسما بالاستقلال على ما هو خير وما هو شر . غير أن ايفان فاسيليفتش كانت لديه عادة الاجابة عن أفكاره التى تثيرها المناقشات ، وأن يقص تجـارب من حياته الخاصة توحى بها هذه الافكار وكثيرا ما كانت تملكعليه قصة ما كل حواسه الى الحد الذى ينسى معه السبب الذى دعاه الى سرد هذه القصة ، وخاصة انه كان دائما يتكلم فى حماس وصدق بالغين ، وهذا هو ما حدث بالذات فى الحالة الراهنة .

يقول ايفان باسيليفتش :

« يمكننى القول على الاقل فيما يتعلق بنفسى أن حياتى قد شكلت على هذا النحو لا على غيره ـ لم تشكلها البيئة انما شكلها شىء آخر يختلف تماما فسأله : « وما هذا الشىء : »

فيجيب « انها قصة طويلة . وسأقصها عليكم ان كان فى وسعكم أن تعوها ..

ـ « فلتقصها اذن » .

ثم اطرق فاسيليفتش لحظة وهز رأسه قائلا :

ـ نعم ، لقد تغيرت حياتي كلها اثر ليلةواحدة أو بعبارة ادق صباح واحد .

ـ وما الذي حدث ؟

ـ حدث ذات مرة أن وقعت في حب عميق . لقد أحببت من قبل ولكنني لم أحب بمثل هذا العمق . لقد حدث هذا منذ زمن بعيد ـ ولا بد أن بناتها زوجات الآن . وكان اسمها ( ب ) فارينكا ( ب ) كانت جميلة جمالا أخاذا في الخمسين من عمرها بيد انها كانت في شبابها حينما كانت في الثامنة عشر حلما رائعا ، فارعة القوام ، نحيلة ، رشيقة عليها مسحة من الجلال ـ نعم الجلال . وكانت تقف دائما منتصبة القامة ـ كما لو كان في غير استطاعتها أن تنحني وتميل برأسها قليلا الى الوراء وكان هذا بالاضافة الى جمالها وطولها ـ ولو أنها كانت نحيفة الى الحد الذي كانت تبدو معه عظامها تقريبا ـ اعطاها كل هذا مظهر الملكات مظهرا كان من الممكن أن يرهب ويخيف لولا ابتسامتها المرحة الجـذابة وفمها وعيناها البراقتان ، وكيانها الشاب الساحر .

فكان تعليقنا ، ان ايفان فاسيليفتش يبالغ دون شك . .

انني مهما بالغت لن يمكنني أن اجعلكم تدركون كيف كانت تبدو حقيقة . غير أن هذا خارج عن الموضوع ، لقـد حدثت الحوادث ـ التي سأسردها ـ في الحلقة الرابعة من هذا القرن :

كنت حينذاك طالبا في جامعة بالأقاليم . وأنا لا أعرف ان كان ذلك خيرا أو شرا ؟ بيد أنه في تلك الأيام لم تكن بجامعتنـا ثمة حلقات دراسة مثل حلقاتكم أو شغف بالنظريات مثل شغفكم . فلم نكن غير شباب وكنا نعيش كما يعيش الشباب من الدراسة والمتعة ؟ ولقـد كنت شابا مرحا الى أقصى حدود المرح مليئا بالنشاط ، وبالاضافة الى هذا كله كنت ثريا . وكنت أمتلك جواد عربة مليئا بالحياة واعتدت أن أصحب الفتيات في رحلات ( اذ ان التزحلق لم يكن بدعة العصر بعد ) وكنت اذهب الى حفلات الشرب مع

زملائى فى الدراسة ( لم نكن نشرب فى هذه الايام سوى الشمبانيا • واذا نفدت نقودنا أمسكنا عن الشراب اذ أننا لم نجد شراب الفودكا كما تفعلون انتم الآن ) • وأهم من هذا وذاك كنت استمتع بالحفلات وخصوصا حفلات الرقص • ولقد كنت راقصا بارعا ولم أكن قبيحا تماما •

فقاطعه أحد المنصتين :

ـ دعك من هذا التواضع لقد رأينا جميعا صورتك • لقد كنت شابا وسيما •

ـ لعلنى كنت وسيما ، ولكن ليس هذا هو الأمر الذى وددت أن أخبركم به • وحينما وصل حبى الى ذروته ، حضرت حفلا راقصا اقامه « سيد النبلاء » فى آخر يوم من أيام الاعتراف الثلاثة • وكان شيخا طيبا ، ثريا ، يهوى استضافة الناس • وكانت زوجته لطيفة مثله ، ووقفت بجانبه تستقبلنا وكانت تلبس رداء من القطيفة وتضع تاجا من الماس فوق شعرها وقد كشفت عن عنقها وكتفيها البيضاوين المليئين كما نرى فى صور الامبراطورة بليزفيتا بتروفنا • لقد كان الحفل رائعا ـ وكانت صالة الرقص ساحرة • وكان هناك مغنون من العبيد وموسيقيون ذائعو الصيت ينتمون الى أحد الملاك من عشاق الموسيقى • وكان الاكل وافرا وانسابت الشمبانيا كالأنهار ؛ ورغم حبى للشمبانيا فاننى لم أشرب ـ لقد أسكرنى الحب ولكننى رقصت حتى وقعت رقصت رقصات الكوادريل والفالس والرقصة البولندية • ولستم فى حاجة الى القول بأننى رقصت كثيرا من هذه الرقصات مع فارينكا • كانت ترتدى فستانا أبيض ، عليه شاش وردى اللون ، وقفاز أبيض من الجلد لا يكاد يصل الى مرفقيها النحيلين المدببين ، كما كانت ترتدى حذاء من الحرير الابيض • ولقد سلبنى مهندس تعس يدعى أنيسيموف احدى رقصات المازوركا معها ، ولم أغفر له ذلك •

لقد دعاها الى الرقص فى اللحظة التى دخلت فيها الصالة وكنت قد تأخرت لمرورى بحانوت الحلاق من أجل القفازات ولذلك فبدل أن أرقص معها رقصة المازوركا رقصت مع فتاة المانية كنت أحبها ذات يوم •

غير انى اعتقد انى أهملتها تلك الليلة ، فلم أخاطبها أو أنظر اليها ، فلم تكن عيناى مهتمتين الا بفتاة نحيلة فارعة القوام ، فى رداء أبيض ووشاح وردى ذات وجنتين مشعتين متوردتين ذات غمازتين وعينين رقيقتين ناعستين .

ولم أكن أنا وحدى الذى أنظر اليها ، فقد كان الجميع ينظرون اليها ويعجبون بها ، حتى النساء انفسهن ولو انهن خبون بجانب ضوئها . فقد كان ضربا من المحال الا يعجب بها المرء .

ولم أكن شريكها فى الرقصة من الوجهة الرسمية بيد انى رقصتها معها فى واقع الأمر - أو على الأقل الجانب الاكبر منها ، فلقد كانت دون أدنى خجل تأتى راقصة نحوى من آخر الحجرة حتى اذا ما قفزت لأقابلها دون انتظار دعوتها ، ابتسمت شاكرة لتخمينى ما كانت تريده ، واذا ما ذهبنا حين رقصتنا نحوها ولم تدرك ما أريد ، هزت كتفيها النحيلتين ومدت يدها الى شخص آخر ثم ابتسمت لى ابتسامة صغيرة تعبر بها عن الأسف والعزاء .

وحينما تحولت المازوركا الى الفالس ، رقصت معها وقتا طويلا وكانت تبتسم وهى لاهثة وتهمس بالفرنسية ، مرة أخرى ، ورقصت معها وأنا لا أشعر بجسمى كما لو كنت قد خلقت من الهواء .

فيعلق أحد الضيوف ، لم تشعر بجسمك ! انى لواثق انك كنت تشعر بجسمها وأنت تضع ذراعك حول خصرها - لا بد انك كنت تشعر لا بجسمك فحسب بل بجسمها أيضا .

وأحمر وجه ايفان فاسيلفتش فجأة وصاح قائلا :

قد يطبق هذا الحكم عليكم يا شباب اليوم . فكل ما تفكرون فيه هو الجسد ، أما فى أيامنا فكان الأمر يختلف عن هذا ، فاذا ما أحببت فتاة كلما زاد حبى لها بدت مجردة من المادة أمامى . أما الآن فانكم تشعرون بالارجل والمعاصم وغيرها من الاشياء . انكم تجردون النساء اللاتى تهعون فى حبهن ، أما عن نفسى - فكما يقول الفونس كار ، ولقد كان كاتبا مجيدا

للغاية ـ كان موضع حبي يرتدي دائما رداء من ابرونز وكنا نحاول أن نغطي العورة كمـــا فعل نوح الصالح لا أن نكشف عنها ، ولكنكم لن تدركوا هذا .

فرد سامع آخر :

ـ لا نعره التفاتا . استمر في قصتك .

ـ حسنا . لقد رقصت أغلب الوقت معها ولم أشعر بمرور الوقت ولقد تعب الموسيقيون فأنتم تعرفون كيف يكون الحال في نهاية حفل راقص ، تعب الموسيقيون وبلغ بهم الاعياء الى حد انهـــم أخذوا يلعبون المازوركا دون توقف .

وأخذ الآباء والأمهات يتركن مناضد اللعب في حجرة الاستقبال في انتظار العشاء ، وكان الخدم يندفعون هنا وهناك . وكانت الساعة تقترب من الثالثة صباحا ، وكان علينا ان نستفيد من الدقائق القليلة الباقية لنا ، فدعوتها مرة أخرى ، وللمرة الثالثة رقصنا من أول الحجرة الى آخرها .

وسألتها حينما عدت بها ثانية الى مكانها :

ـ هل ستكونين شريكتي في الكوادريل بعد العشاء ؟

فقالت وهي تبتسم :

ـ نعم . الا اذا كانوا سيأخذونني الى المنزل .

فقلت لها :

ـ لن أدعهم .

فقالت :

ـ اعطني مروحتي :

وقلت لها وأنا أعطيها مروحتها البيضاء الصغيرة :

ـ انني لآسف ان أردها اليك .

فقالت وهي تنزع ريشة من المروحة وتعطيني اياها :

ـ اليك هذه اذن حتى لا تندم •

وأخذت الريشة وأنا لا أملك أن أعبر عن نشوتي وامتناني الا بنظرة فلم أكن مرحا وراضيا فحسب بل لقد كنت سعيدا • سعيدا ، خيرا • فلم أعد المرء نفسه ، ولـــكني مخلوق آخر غير تلك المخلوقات التي تسكن الارض والتي لا تعرف الشر ولا يمكنها ان تفعل الا الخير •

وادخلت الريشة في قفازي ووقفت كأنني ثبت في مكاني ، وأصبحت غير قادر على الحركة بعيدا عنها •

فقالت وهي تشير الى أبيهـــا وهو رجل مهيب فارع الطول ، وهو ضابط كبير بالجيش قد حلى كتفيه بحلية فضية اللون ، وكان يقف بمدخل الصالة في صحبة المضيفة وبعض النساء الاخريات :

ـ أنظر ، انهم يسألون بابا أن يرقص •

فنادت المضيفة ذات التاج الماسي ( على فتاتي ) :

ـ تعالى هنا يافارينكا •

واتجهت فارينكا نحو الباب وتبعتها •

فقالت زوجة المضيف :

ـ أقنعي والدك أن يرقص معك ، يا عزيزتي ، أرجـوك ! يا بيوتر فلاديسلا فيتش أن ترقص •

وكان والد فارينكا طويلا وسيما مهيبا محتفظا بشبابه • وكان ذا وجه أحمر وشارب أبيض قـــد رفع طرفيه الى أعلى ؛ على طريقـة الامبراطور نيقولا • وكان ذا فودين ابيضين يصـلان الى شاربه ، وقد مشط شعره على صدغيه • وكانت تشع من عينيه وشفتيه ابتسامة ابنته نفسها ، وكان قوى البنية ذا صدر عريض يبرز الى الامام على الطريقة العسكرية ، وكان على صدره مجموعة متواضعة من الاوسمة وكان قوى المنكبين ، وكانت رجلاه طويلتين رشيقتين • لقد كان ضابطا من الطراز القديم ذا مشية عسكرية من مدرسة الامبراطور نيقولا •

وبينما نحن نقترب من المدخل كان الضابط يؤكد أنه نسى كيف يرقص ، بيد انه ابتسم ومد يده الى سيفه ، وأخرجه من غمده ، وناوله الى شاب دائم الاستعداد لتقديم الخدمات ، ثم وضع قفازا من الجلد على يده اليمنى وقال وهو يبتسم :

- كل شيء حسب أصوله .

ثم أخذ يد ابنته ودار ربع دائرة فى انتظار بدء الموسيقى الملائمة .

وما أن بدأت الموسيقى التى تصاحب رقصة المازوركا حتى ضرب الأرض باحدى قدميه فى قوة ودار بالقدم الأخرى وأخذ جسمه الطويل الثقيل يتحرك حول صالة الرقص . وظل يضرب احدى قدميه بالأخرى فى بطء أحيانا ، وفى رشاقة أحيانا أخرى ، فى سرعة أحيانا وبقوة أحيانا أخرى . وسجى جسم فارينكا الطيع بجانبه ، وظلت تطيل وتقصر الخطوات التى بين قدميها حين تلبس الحذاء الحريرى الأبيض لتوائم بينها وبين خطواتها ، ظلت تفعل هذا فى سرعة ودقة .

ووقف الضيوف جميعا يلاحظون كل حركة من حركات هذين الاثنين . ولم أشعر بالاعجاب بقدر ما شعرت بضرب من النشوة الدقيقة . ولقد تأثرت تأثرا بالغا بمنظر حذاء العقيد ، لقد كان حذاء جيدا من جلد العجول ، ولكنه كان دون كعب ، وكانت مقدمته عريضة غير مدببة كالأحذية الحديثة . وكان من الواضح ان الحذاء من صنع صانع الأحذية بالاورطة ، . فقلت فيما بيني وبين نفسي ، ، انه يلبس حذاء عاديا لا حذاء من طراز حديث حتى يمكنه ان يلبس ابنته المحبوبة خير الملابس ويصحبها فى المجتمع ، . ولعل هذا ما جعل حذاءه ذا المقدمة العريضة يهزنى بوجه خاص . ورأى الجميع انه كان راقصا بارعا فى يوم ما ، غير أنه أصبح الآن ثقيلا ، ولم تعد رجلاه مرنة طيعة الى الحد الذى يستطيع معه أن يقوم بكل هذه الحركات الجميلة التى كان يحاولها . ورغم هذا كله ، استطاع ان يدور حول الصالة مرتين . وصفق له الحاضرون حينما فرد قدميه ، وضمهما ثانية فى سرعة خاطفة ووقع على احدى ركبتيه وان كانت تنقصه

بعض الخفة فى ذلك. وابتسمت فاريكا وهى تحرر رداءها الذى اشتبك ، ثم أخذت تنسج حوله فى رشاقة ، وحينما وقف ثانية بعد شىء من الجهد ، وضع يديه فى حركة تثير العطف فوق أذنى ابنته وقبلها على جبينها ، ثم قادها الى ، ظنا منه اننى كنت شريكها فى الرقص ؟ ولكنى قلت له اننى لم أكن شريكها ، فقال وهو يبتسم فى حرارة بينما كان يرد سيفه الى غمده .

ـ ان هذا لا يغير الوضع . فلترقص معها .

ولقد أطلق حبى نحو فاريكا العنان لكل الحب فى روحى ، مثله مثل أول قطرة تنساب من قنينة فينساب فى اثرها تيار بأكمله . واحتضنت العالم محبا . فأحببت المضيفة بتاجها الماسى وزوجها وضيوفها وخدمهـا ، وحتى انيسيموف التعس نفسه الذى كان من الواضح انه غاضب منى أحببته . أما عن والدها بحذائه ذى المقدمة المفرطحة وابتسامته التى تشبه ابتسامة ابنه فقد شعرت نحوه بحب مقرون بنشوة .

وانتهت رقصة المازوركا ودعانا المضيف والمضيفة الى منضدة العشاء ولكن الضابط اعتذر قائلا انه يجب عليه ان يصحو مبكرا فى الصباح وخشيت أن يصطحب فاريكا معه ، ولكنها تخلفت مع والدتها .

وبعد العشاء رقصت معها رقصة الكوادريل التى وعدتنى بها . وبرغم أن سعادتى بدت كأنها لا تقبل المزيد الا انها أخذت تنمو وتنمو . ولم تقل شيئا عن الحب ، ولم أسألها أو أسأل نفسى عن مقدار حبها اياى وهل كان يكفى اننى أحبها . الا أن الشىء الوحيد الذى خشيته هو ان يحدث ما قد يفسد سعادتى .

وحينما عدت الى المنزل ، وخلعت ملابسى وفكرت فى الذهاب الى فراشى ، أدركت ان النوم أمر مستحيل . فأمسكت فى يدى الريشة التى أخذتها من مروحتها ، وأحد قفازيها الذى أعطتنى اياه حينما رافقتها وأمها الى العربة وحينما نظرت الى هذين التذكارين تمثلتها ثانية فى تلك اللحظة حينما اختارت احد شريكيها فى الرقصة وأدركت طبيعتى وقالت فى صوت حلو : « انك تعتز بنفسك ، أليس كذلك؟» ثم مدت احدى يديها الى وهى

مرحة ، كما تمثلها وهي ترتشف لشمبانيا على مائدة العشاء ، وتنظرت الى من فوق كأسها بعيون محبة ولهة . ولكن خيرا من هذا وذاك انى تمثلتها وهي ترقص مع أبيها ، تسبح في رشاقة بجانبه وتنظـــر الى المشاهدين المعجبين في مرح وكبرياء من أجله ومن أجلها . ودون أن أدرى اقترن الاثنان في عقلي وأحاط بهما شعور واحد يتسم بالعمق والرقة .

وكنت أنا وأخي ـ رحمه الله ـ في ذلك الوقت نسكن وحدنا ـ ولم يعتد أخي حياة المجتمعات ، ولم يذهب قط الى الحفلات الراقصة . وكان يستعد للامتحان لدرجة الماجستير ، وكان يحيا حياة مثالية لا تدانيها في ذلك حياة أخرى . كان نائما ؛ وشعرت بالشفقة عليه حينما رأيته وقد دفن رأسه في الوسادة ، ولم يضع فوق جسده الا نصف غطائه . شعرت بالشفقة عليه لأنه لم يعرف ما كنت أملك من سعادة ، ولم يشاركني اياها . وقابلني بتروشيا ، خادمنا وعبدنا ، بشمعة ، ولولا انى أمرته بالانصراف لساعدني على خلع ملابسي ، لقد أثار شفقتي وجه الرجل الذي يغلب عليه النوم ، وشعره الأشعث وفي محاولتي الا أحدث صوتا ، خطوت على أطراف أصابعي الى حجرتي وجلست على فراشي . لقد كنت سعيدا ولم يكن بوسعي النوم ووجدت الجو حارا بالحجرة ، ولذلك تسللت الى الردهة دون أن أخلع سترتي ، وارتديت معطفي وفتحت الباب الخارجي ودلفت الى الخارج .

لقد كانت الساعة قرب الخامسة صباحا حينمـــا غادرت الردهة ولقد مرت ساعتان منذ ذلك الوقت ، ولذلك كانت الدنيا مضيئة حينما خرجت لقد كان الجو من النوع الذي نألفه في أيام الاعتراف الثلاثة ، يتميز بالضباب والثلوج على الطريق الآخذة في الذوبان ونقط المياه التي تتساقط من من أسطح المنازل وكانت عائلة الضابط (ب) في هذا الوقت تعيش على أطراف المدينة ، على حافة مكان فسيح . عند أحد طرفيه مدرسة البنات ، وعلى الطرف الأخرى فضاء يستغله الناس في الترويح ؛ وسرت في شارعنا الجانبي الهادىء الضيق وخرجت الى الشارع الرئيسي ؛ حيث قابلت المارة والحمالين بزحافاتهم المحملة بالأخشاب ، وكانت الزحافات تحرث الثلج حتى الرصيف وبدا كل شيء عزيزا ، ذا مغزى يستوى في ذلك الخيول التي تهز رءوسها

فى ايقاع تحت نيرها الملونة . والحمالون بحصيرهم المصنوع من الليف على اكتافهم وهم يمشون بخطى ثقيلة فى أحذيتهم الضخمة خلال الوحل الى جانب زحافاتهم ، والمنازل على كلا الجانبين عالية فى الضباب ـ بدا كل هذا عزيزا ذا مغزى .

وحينما وصلت الى الحقل حيث يقوم منزل هذه العائلة ، رأيت شيئا كبيرا أسود فى الفراغ الذى يستغل للنزهة ، وسمعت أصوات ناى وطبول لقد كان قلبى يغنى طوال الوقت . وعادت الى مخيلتى بين الحين والآخر الالحان التى تصاحب المازوركا ، بيد أن هذه الموسيقى كانت تغايرها ، اذ كانت تنذر بالشؤم .

فسألت نفسى ، يالله ما هذه الموسيقى ؟ . وتوجهت تجاه الأصوات وأنا أجوس طريق العربات الذى يقطع ذلك الفضاء ، وما ان سرت مائة خطوة حتى بدأت استبين جمعا من الناس فى هذا الضباب وكان من الواضح انهم جنود يتدربون . ومضيت فى طريقى فى صحبة حداد فى مئزر ملوث بالزيت وسترة ، وكان يحمل لفافة كبيرة . وكان هناك صفان من الجنود فى حلل سوداء أحدهما فى مواجهة الآخر وقد وقفوا دون حراك ، وبنادقهم الى جانبهم . ووقف من خلفهم لاعب على ناى وصبى يقرع طبلا ، وقد ظل يرسل هذه النغمة الحادة مرة تلو المرة .

وسألت الحداد الواقف بجانبى :

ـ ماذا يفعلون ؟

فرد الحداد فى خشونة وهو يحملق فى نهاية المسافة بين صفى الجنود انهم يسوقون احد التتار بين الصفين لمحاولته الهرب .

ونظرت فى الاتجاه نفسه ورأيت شيئا راعبا يتقدم نحوى بين الصفين لقد كان رجلا عاريا حتى وسطه وقد ربطت ذراعاه الى بندقية مثبتة عرضيا مع كتفيه يمسك جندى بكل طرف من طرفيها ؟ وكان يسير الى جانبه ضابط طويل قد ارتدى معطفا وقبعة من القش ؟ وبدا مظهر مألوفا لى . وتقدم السجين وكان جسمه كله يتلوى ، ويدوس بقدميه خلال الثلج الذائب ، وتقدم السجين بين ضربات تنهال عليه من كلا الجانبين وكان

يميل الى الوراء أحيانا ، وفي هذه اللحظة يجذبه الجنديان اللذان يمسكان بالبندقية الأفقية الى الامام ، وأحيانا أخرى يندفع الى الامام ؛ وحينئذ يجذبه الجنديان الى الوراء حتى لا ينكفيء . والى جانبه كان يسير الضابط الطويل ثابت الخطا لا يختلف الى الوراء أبدا . لقد كان والدها " بوجهه الأحمر وشاربه الابيض وفوديه الأبيضين .

وفي كل لطمة كان السجين يدير وجها قد غضنه الألم الى ذلك الجانب الذي أتت منه اللطمة كأنما كان في دهشة ؛ وظل يردد (لاشيئا) للمرة تلو الأخرى بين اسنان عارية بيضاء " ولم استبن الكلمات الا بعد اقترابي منه كان ينسج الكلمات أكثر مما يتكلمها «الرحمة ايها الاخوة الرحمة» «ولكن الاخوة كانت تنقصهم الرحمة ؛ وحينما كان الموكب في محاذاتي رأيت أحد الجنود يخطو الى الامام في ثقة وحزم وينزل بسوطه على ظهر التتاري بقسوة أحدثت صفيرا في الهواء ، تأنكفأ التتاري الى الامام بيد ان الجنود جذبوه الى أعلى ؛ وحينئذ هوت ضربة من الجانب الآخر ثم توالت الضربات بجانبه وهو ينظر الى قدميه أحيانا والى السجين أحيانا أخرى ؛ ثم يأخذ نفسا عميقا وينفخ وجنتيه ويدع الهواء يخرج في بطء من بين شفتيه المغلقتين . وحينما مر الموكب بالمكان الذي كنت أقف فيه ، رأيت ظهر السجين بين صفي الجند . لقد كان شيئا لايمكن وصفه " مخططا " مبللا قرمزيا غريبا . ولم أصدق أنها جزء من جسم آدمي .

وتمتم الحداد الواقف الى جانبي :

ـ الهي الذي في السماء !

واستمر الموكب ، وظلت الضربات تهوى من الجانبين على هذا المخلوق المتداعي ، وظل الطبل يقرع ، والناي يصيح ؛ وظل الضابط المهيب يمشي في ثقة الى جانب السجين ؛ ثم فجأة وقف الضابط وخطا نحو أحد الجنود وسمعته يقول في صوت غاضب :

ـ لقد أخطأت ! دعني أرك . خذ هذا ! وهذا!

ورأيت يده القوية في قفازه الجلدي تضرب الجندي الضعيف في وجهه لان سوطهذا الانسان لم يهو بقوة كافية على ظهرالتاتارى القرمزى اللون .

وصاح الضابط :

ـ عليكم بسياط جديدة .

وحينما استدار لمحنى ؛ وتظاهر بانه لم يعرفنى ؛ ثم زمجر زمجرة خبيثة مليئة بالتهديد وخطا سريعا بعيدا عنى . وشعرت بالخجل ولم أعرف أين أدير عينى ، كأنه قد أمسك بى وأنا أفعل شيئا شائنا . واسرعت الى المنزل ورأسى منكس . وظللت أسمع قرع الطبل طوال الطريق ؛وظللت أسمع صفير الناى ؛ وتلك الكلمات . الرحمة أيها الأخوة . وصوت الضابط الغاضب فى خيلائه وهو يصيح . لقد أخطأت . خذ هذا وهذا . ولقد احتدم الألم فى قلبى حتى كاد أن يصبح ألما جسيما ؛ مما جعلنى أشعر بالغثيان ومما اضطرنى الى الوقوف مرارا . وشعرت كأنما يجب أن أفرغ كل هذه البشاعة التى ملأتنى بها هـذا المنظر وأعود الى فراشى وحينما استلقيت على فراشى كنت أسمع وأرى كل ما مر بى كلما بدأت أغفو ، فنهضت .

فحدثت نفسى وأنا أتأمل الضابط . لابد أنه يعرف شيئا لا أعرفه أنا ولو عرفت ما يعرف ، لفهمت ؛ ولم يسبب لى ما رأيت مثل هذا الألم . .

ولكنى مهما أعملت فكرى ومهما اشرحهذا التفكير بالالم فلن يكون فى وسعى أن أدرك ما كان يعرفه الضابط ؛ ولم أنم حتى المساء ؛ وحتى هذا اليوم لم أحظ به الا بعد أن ذهبت الىصديق لى وشربت حتى لم أعد أحس ما حولى .

أتعتقدون اننى فهمت ان ما رأيته كان شرا ؟ كـلا اذا كان ما رأيته قد فعل بمثل هذه الثقة وقبله كل فرد كشىء ضرورى ، فهذا معناه انهم يعرفون شيئا لا أعرفه ؛ هذه هى النتيجة التىوصلت اليها . ولكنىحاولت أن أعرف ما هذا الشىء دون جدوى . ولعل هذا هو السبب فى عـدم

التحاقى بالخدمة العسكرية كما كنت أقصد أن أفعل ؛ بل لم التحق بأية خدمة بالمرة ؛ وهكذا أصبحت هذا الشخص الذى لا نفع منه الذى ترونه الآن .

فقال لى أحد الحاضرين :

ـ نحن نعرف جيدا كيف أصبحت شخصا لا نفع منه ؛ ولقد كان من الخير أن تقول لنا عدد الأشخاص الذين كان من الممكن أن يصبحوا عديمى النفع لولاك .

فرد ايفان فاسيليفتش وقد اعتراه اضطراب حقيقى :

ـ ان من الغباء أن تقول هذا .

وسألناه :

ـ حسنا ؛ ولكن ما الذى تم فى حبك ؟

فرد قائلا :

ـ حبى ! منذ ذلك اليوم أخذ حبى يفتر ، وكلما خرجنا للتنزه وابتسمت ابتسامتها التى تقترن بالتأمل ؛ لم استطع الا أن أتمثل الضابط فى الفضاء ؛ الامر الذى جعلنى أشعر بالاضطراب والشقاء وتوقفنا عن الذهاب لرؤيتها بالتدريج وهكذا خبا حبى .

وهذا هو ما يحدث أحيانا ؛ ومثل تلك الأحداث هى التى تغير حياة الانسان كلها وتوجهها على حين أنكم تتكلمون عن البيئة .

# المتنازعون

فى ليلة من ليالى شهر سبتمبر المظلمة ، بعد التاسعة بقليل ، توفى بالدفتيريا آندريا البالغ من العمر ستة أعوام والابن الوحيد للدكتور كيربلوف طبيب الصحة بزميستفو . وقد جثت زوجة الطبيب على ركبتيها بجانب الفراش الصغير ، فى أول نوبة من نوبات اليأس ، على حين أخذ جرس الباب الخارجى يرن رنينا حادا .

ولقد أبعد الخدم عن المنزل فى الصباح بسبب الدفتيريا ، وذهب كيربلوف دون سترته ؛ ودون أن يثبت أزرار صداره ؛ بل دون أن يمسح وجهه المبتل ويديه الملوثتين بحامض الكربوليك . وكانت الردهة مظلمة وكل ما أمكنه أن يستبينه من الرجل الذى دخل الردهة قوامه الذى كان عاديا ؛ ووشاحه الأبيض ووجهه العريض الذى كان على قدر من الشحوب أضاء الحجرة ــ كما بدا للطبيب .

وسأل الرجل فى سرعة :

ــ هل الطبيب بالمنزل ؟

فأجاب كيربلوف :

ــ أنا بالمنزل . ماذا تريد ؟

فقال الرجل فى نبرة تدل على الاطمئنان وهو يتحسس الطريق فى الظلمة باحثا عن يد الطبيب ؛ وما ان وجدها حتى ضغط عليها بعاطفة بين يديه :

ــ آه ... أنا سعيد للقائك ... سعيد جدا ... سعيد جدا . لقد تقابلنا من قبل . اسمى أبوجين . لقد سعدت بلقائك فى الصيف فى منزل جنوشيف . انى لسعيد أن وجدتك بالمنزل . تعال معى فى

الحال ... انى أستعطفك ... ان زوجتى فى حالة خطرة ... معى عربة هنا .

وكان صوت القادم وحركاته تظهر أنه فى حالة اضطراب شديد وكان يتنفس بسرعة ويتكلم بصوت سريع مرتجف كأنه قد هرب لتوه من حريق أو كلب مسعور ، وكان يعبر عن نفسه بسذاجة مثل سذاجة الأطفال . وكانت عباراته قصيرة متقطعة كما يفعل الناس وهم فى حالة خوف أو انفعال وقد تفوه بكلمات لا علاقة لها بالأمر .

ومضى قائلا :

ـ لقد خشيت ألا أجدك بالمنزل . وطوال الطريق الى هنا اجتزت آلاما مريرة . ضع معطفك وتعال اكراما لله ... لقد بدأت هكذا لقد أتى بابشينسكى ليرانى ـ الكسندر سميونوفيتش . أنت تعرفه . وجلسنا نتكلم فترة ، ثم ذهبنا الى المائدة وتناولنا الشاى . وفجأة . صاحت زوجتى ، ووضعت يدها على قلبها وانهارت على المقعد ، وحملناها الى فراشها ... ودعكت لها صدغيها بالنشادر ونثرت عليها الماء ... ولكنها رقدت هناك مثل الموتى ... انى أخشى أن يكون انفجار شريان ... لقد توفى أبوها بالعلة نفسها .

وأنصت كيربلوف وهو صامت كأنه لايفهم الروسية .

وحينما ذكر ابوجين اسم بابشينسكى ثانية ، ووالد زوجته ، وحينما بحث عن يد كيربلوف فى الظلمة للمرة الثانية ، هز الطبيب رأسه الى الوراء فى حركة عصبية وقال فى بطء وعدم اكتراث :

ـ يؤسفنى أننى لا أستطيع الذهاب الى منزلك . فمنذ خمس دقائق ـ مات ابنى .

فهمس ابوجين ، وهو يتراجع خطوة الى الوراء :

ـ لا ! أحقا ! ياالهى ! لقد اخترت لحظة غير مناسبة ! ماأتعسه يوما ... انه لشىء فريد ... بالمصادفة ! انه لشىء لا يرد على بال .

وأمسك بمقبض الباب ، وقد أحنى رأسه ، كأنه غارق في التفكير ويبدو أنه لم يقرر ان كان سيخرج أو سيستمر في توسلاته . الا أنه قال في حرارة وهو يمسك بكم قميص كيربلوف :

ـ فلتسمع . انى أدرك موقفك تماما . والله يعلم أنني خجل من محاولة جذب انتباهك في مثل هذه اللحظة ، ولكن ما الذى أفعله ؟ فلتكن حكما ... الى أين أذهب ؟ ليس هناك طبيب آخر غيرك في هذا المكان . تعال اكراما لله ! انى لا أطلبك لنفسى . فلست المريض .

وتلا ذلك صمت . وأعطى كيربلوف ظهره لا بوجين وظل هكذا دقيقة أو دقيقتين ، ثم غادر الردهة في بطء ودخل حجرة الاستقبال . وبدا كيربلوف كأنه ليست لديه أية نوايا أو رغبات في هذه اللحظة وانه لم يفكر في شيء اذا حكمنا عليه من خطوته المترددة الآلية ، والذهول الذى سوى به ظلمة المصباح غير المضاء ، وهو في الحجرة ، ولذلك الذهول الذى نظر به في كتاب سميك على المنضدة . ومن المحتمل أنه قد نسى أن ثمة غريبا يقف في الحجرة ، وبدا أن الظلمة والهدوء قد زادا من ذهوله .

وحينما غادر حجرة الاستقبال وذهب الى حجرة مكتبه رفع قدمه اليمنى أعلى مما يلزم ، وتحسس الطريق الى الباب ، على حين كان جسمه كله يعبر عن نوع من الدهشة ، كأنما قد وجد نفسه في منزل غريب ، أو كأنه قد ثمل لأول مرة في حياته ، وأنه كان يستجيب الآن وهو مشدوه ولهذا الاحساس الجديد . وكان ثمة شريط عريض من الضوء على أحد جدران حجرة مكتبه وعلى رفوف الكتب . ولقد كان هذا الضوء صادرا من الباب الموصل الى حجرة النوم الذى كان نصف مفتوح ـ أتى هذا الضوء يصحبه رائحة حامض الكربوليك والاثير الثقيلة النفاذة ... وغاص الطبيب في مقعد أمام المنضدة ، ونظر وهو شبه نائم الى كتبه التى أضاءها هذا الشعاع من الضوء ثم نهض واقفا وذهب الى حجرة النوم .

وفى حجرة النوم ساد سكون الموت . هنا شهدت أتفه الأشياء

بها العاصفة التى ثارت منذ وقت قريب ، والتى اسكانت واستحالت الى اعياء هنا ساد الهدوء . وكانت هناك شمعة على مقعد ، وسط حشد من الزجاجات والعلب والأوانى ، وكان هناك مصباح كبير على صوان ، وأضاءت الشمعة والمصباح الحجرة كلها . وعلى فراش أسفل النافذة تماما كان يرقد صبى صغير وعيناه مفتوحتان ، وعلى وجهه تعبير دهشة . لم يتحرك ، بيد أن عينيه بدتا كأنهما تزدادان ظلمة لحظة بعد لحظة ، وأنهما تغوران بعيدا بعيدا فى جمجمته ، وجثت الأم بجانب الفراش ويداها على جسد الصبى ، ووجهها مخبأ فى أغطية الفراش ، وكانت ساكنة مثل طفلها لاتتحرك وان كانت هناك حياة كامنة فى انحناءات جسمها وذراعيها . وضغطت بكيانها كله على الفراش ، بقوة ونهم ، كأنما تخشى أن تفسد هذا الوضع الهادىء الذى يبعث على الراحة والذى وجدته جسدها المنهمك أخيرا . وأخلد كل شىء الى الراحة ، وبدا كأنه قد غاص فى سلام عميق ، الاغطية وقطع التيل ، والأوانى ، والماء الراكد فى برك على الأرض والمكانس ، والملاعق المبعثرة ، والزجاجة البيضاء المليئة بماء الجير ، بل الهواء نفسه الثقيل الخانق — كل هذه الاشياء أخلدت الى الراحة .

ووقف الطبيب بجانب زوجته ، ووضع يديه فى جيبى سرواله ، وتفرس فى ابنه ، وقد مالت رأسه الى جنب ، وكان وجهه يعبر عن عدم اكتراث ، والشىء الوحيد الذى أظهر أنه كان يبكى منذ لحظات تلك الدموع التى كانت تتلألأ فى لحيته .

وكانت الحجرة تخلو من النفور والفظاعة المقترنين بفكرة الموت . وكان ثمة شىء شبه جذاب فى هذا الشلل السائد ، ووضع الام وعدم المبالاة التى ارتسمت على ملامح الوالد ، كان ثمة شىء يحرك العواطف . هو ذلك الجمال الخفى للحزن البشرى ، الذى لن يتعلم الناس سريعا أن يدركوه أو بالأحرى أن يصفوه ، والذى لايمكن أن تنقله الا الموسيقى . وكان ثمة جمال فى هذا السكون الحزين . ولم يقل كيريلوف أو زوجته شيئا ، لم يبكيا كأنما قد شعرا بشاعرية

الموقف بالاضـافة الى عبء الحزن . كان الطبيب فى العـام الرابع والاربعين من عمـره ، وقد بدأ المشيب يغزو رأسـه ، وبدا كرجل عجوز . وكانت زوجته الذابلة الرقيقة فى الخامسة والثلاثين . ولم يكن اندريا ابنهما الوحيد فحسب ، بل كان ابنهما الأخير .

وكان الطبيب - على نقيض زوجته - ينتمى الى تلك الطبـائع التى تشعر بالحاجة الى العمل فى لحظات الألم العقلى . وبعـد أن وقف بضع لحظات بجانب زوجته ، خرج من حجـرة النوم ، وهو ما يزال يرفع قدمه اليمنى الى أعلى أكثر ممـا يلزم ؛ وذهب الى حجرة صغيرة تشغل نصفها أريكة عريضة ومن هنا ذهب الى المطبخ . وأخذ يجىء ويروح الى جانب الموقد وفراش الطاهية ، ثم انحنى ومر بباب منخفض أوصله الى الردهة .

وهناك واجه للمرة الثانية الوشاح الابيض والوجه الشاحب .

وتنهد ابوجين . وقد وضـع يده على مقبض البـاب ، وقال أخيرا :

- تعال معى ... أرجوك أن تأتى

ودهش الطبيب ونظر اليه وتذكر ... وقال وقد عاد فجـأة الى الحياة :

- ولكننى قلت لك أنه لايمكننى أن أذهب معك . ياللغرابة !

فقال ابوجين فى نبرات تنم عن الاسـتعطاف واضـعا يده على وشاحه :

- اننى لست صورة محفورة أيها الطبيب . أنا أفهم موقفك تماما وأقدره فعواطفى معك . الا اننى لا أستعطفك من أجل نفسى . ان امرأتى تحتضر . ولو كنت قد سـمعت صرختها ورأيت وجهها لأدركت الحاحى . الهى ، لقد ظننت أنك ذهبت لترتدى ملابسك . ان الوقت ثمين يادكتور . تعال انى استعطفك .

فرد الطبيب وهو ينطق كل كلمـــة بوضوح فى طريقه الى حجرة الاستقبال :

ـ لايمكننى أن أذهب معك

فتبعه ابوجين وأمسك بذراعه قائلا :

ـ انك فى محنة قاسية ، انى أدرك ذلك . انى أستعطفك أن تأتى لا لعلاج ألم بالأسنان أو لمجرد تشخيص مرض . انى استعطفك أن تأتى لتنقذ حياة بشرية .

واستطرد ابوجين فى صوت ينم عن الاستعطاف :

ـ ان هذه الحياة فوق الحزن الشخصى . تعال الآن . انى أتوسل اليك أن تظهر شجاعة وبطولة ، باسم الانسانية !

فيرد كيريلوف فى ضيق :

ـ الانسانية ! ان هذا السلاح ذو حدين . باسم هذه الانسانية ذاتها أستعطفك ألا تأخذنى معك . بالغرابة انى لا أتمالك الوقوف على قدمى وأنت تحاول أن تخيفنى بكلمة الانسانية . انى لا أصلح لشىء الآن ... ولن يجبرنى شىء على الذهاب والى جانب هـذا ، ليس هناك أحد أتركه مع زوجتى . لن أذهب ... لن أذهب ...

وتراجع كيريلوف الى الوراء خطوة وهو يبعـد الرجل الآخر عنه بدفعة من يديه ؟ ومضى وهو فى ذعر مفاجىء :

ـ أرجوك ألا تسألنى مرة أخرى ! معذرة ... فحسب المجلد الثالث عشر من القـانون ، أنا ملزم بالذهاب معك ؛ ومن حقك أن تجرنى معك من ياقة سترتى ، حسنا . فلتفعل هـذا ، ولكننى ... لا أصلح لشىء ... وانى لعاجز حتى عن الكلام ... معذرة ...

وجذب أبوجين الطبيب ثانية من ذراعه وهو يقول :

ـ يجب ألا تستعمل هذه اللهجة معى ، يادكتـور .. وماذا

يعنيني من الكتاب الثالث عشر ؟ ليس لى الحق فى أن أجبرك على القيام بشيء ضد ارادتك . فلتحضر ان أردت أن تحضر ! وان لم تحضر فهذا أمر لا نملك شيئا حياله . انني لا أخاطب ميولك ، انما أخاطب قلبك . فهناك امرأة شابة تحتضر ، وأنت تقول ان ابنك قد مات منذ وقت قريب . اذن ينبغى عليك ـ دون الناس قاطبة ـ أن تعرف حزنى .

واهتز صوت أبوجين بالانفعال . وكانت ثمة قوة اقناع أكثر فى اهتزاز صوته ونبراته عما فى كلماته . لقد كان أبوجين صادقا ، بيد أنه من العجيب أن عباراته بدت جامدة ، خالية من الشعور ، منمقة أكثر مما يجب ، وبدت هذه العبارات كأساءة للجو السائد بمنزل الطبيب وللمرأة التى تحتضر بعيدا . وشعر أبوجين نفسه بهذا ، وخشى أن يكون قد فشل فى التعبير عن نفسه ، ومن ثم حاول ماق وسعه أن يجعل صوته ناعما جذابا ، حتى يفلح فى تحقيق غرضه بصدق نبراته ان لم تكن بكلماته . ويقال ان العبارات مهما بلغت من جمال وعمق لاتؤثر على غير المكترثين . وانها لاتشبع دائما السعداء أو من يعانون الحزن . والى هذا ترجع هذه الحقيقة وهى أن السكوت ـ دون غيره ـ اسمى تعبير عن السعادة أو الحزن . فالمحبون يفهم كل منهم الآخر حينما يسكتون ، ولا يحرك الحديث الملىء بالعواطف والحماس عند قبر ما الا الغرباء ، ويبدو باردا غير ذى مغزى للأرملة والأطفال .

وقف كيريلوف صامتا . وحينما نطق أبوجين ببضع عبارات أخرى عن رسالة الطبيب السامية ، وعن التضحية بالذات والى غير ذلك ، سأله الطبيب محتدا :

ـ هل يبعد المكان عن هنا كثيرا ؟

ـ لايبعد الا مايقرب من ثلاثة أو أربعة عشر فرسخا ، وجيادى ممتازة يادكتور . أقسم بشرف بأنها ستأخذك وتعود بك خلال ساعة . ساعة واحدة فحسب .

ولقد أثرت هـذه الكلمات فى الطبيب أكثر من اشـارته الى الانسانية ورسالة الطبيب • وبعد لحظة من التأمل تنهد قائلا :

ــ حسنا ، فلنذهب

فدخل الطبيب حجرة مكتبه بخطا سريعة ، قد أصبحت الآن ثابتة تماما ، وعاد بعد لحظة ومعه معطفه • وسـار أبوجين وهو فرح الى جانبه بخطا قصيرة متعثرة ، وساعده على ارتداء المعطف وغادر المنزل معه •

كانت الدنيا مظلمة فى الخارج ، الا أنهـا كانت أقل ظلمة منهـا فى الردهة ، ولقد بدا الخط الخارجى للطبيب بطوله وانحناءة جسمه وذقنه المستطيل ، وأنفه المدبب واضـحا والظلمة من خلفـه • أما أبوجين فقـد أبان الى جانب وجهه الشاحب عن رأس كبير دقيق مغطى بوشاح لا يكاد يغطى قمة رأسه • ولم يبد بياض الوشـاح الا فى أطرافه الملقاة على صدره ، أما مؤخرة الوشاح فقد اختفت وراء شعره الطويل •

وتمتم أبوجين حينما جلس الطبيب فى العربة قائلا :

ــ صدقنى ، سأعرف كيف أظهر تقديرى لسماحتك ونخوتك • سنصل الى هناك فى سرعة خاطفة • لوقا أيها العجوز أسرع بقدر ما يمكنك أرجوك أن تسرع •

وأسرع الحوذى • ومر فى بادىء الأمر بصـف من المبانى الشوهاء اصطفت على محاذاة فناء المستشفى • وكانت المبانى تكتنفها الظلمة فيما عدا ضوءا باهرا ينبعث عبر الحـديقة الأمامية من نافذة فى مؤخرة الفناء ، وثلاث نوافذ أخرى فى الطابق الاعلى بأحد مبانى المستشفى ، الذى بدت ألواح النوافذ به أكثر شـحوبا من الهواء المحيط • ثم غاصت العربة فى ظلمة كثيفة وكانت هناك رائحة الرطوبة وعش الغراب ، وصوت حفيف الأشجار • ومن بين الاغصـان علا صـوت الغربان التى أيقظها صـوت العجلات بنعيق ينم عن الفزع والحزن كأنمـا كانت تعرف موت ابن الطبيب ومرض زوجة أبوجين •

الا أنه سرعان مابدأت الأشجار الوحيدة ، والادغال تمرق الى الوراء ، وثمة بركة استرخت على سطحها ظلال سوداء كبيرة تتلألأ فى حزن ، وخرجت العربة أخيرا الى أرض مكشوفة . وأصبح نعيق الغربان أكثر حزنا ولكنه سرعان ما تلاشى تماما .

ولم يتحدث كيريلوف وأبوجين طوال الطريق ، وان كان أبوجين قد تنهد مرة متمتما :

ـ موقف مؤلم . انك لاتحب ... لاتحب ... أولئك القريبين منك أبدا مثلما تحبهم عندما تخشى أن تفقدهم .

وحينما أبطأت العربة لتجتاز النهر انزعج كيريلوف على حين غرة ، وتحرك فى مقعده كما لو أن تناثر الماء قد أزعجه .

وقال فى حزن :

ـ استمع لى . دعنى أرجع . سأحضر اليك فيما بعد . انى أود أن أرسل مساعدى الى زوجتى فحسب . وهى وحيدة على أية حال .

فلم يقل أبوجين شيئا . ومالت العربة يمنة ويسرة على حين كانت عجلاتها ترتطم بالحجارة ، وخرجت الى الشاطىء الرملى ، واستمرت فى المسير .

وأخذ كيريلوف يتسلل حزينا ، ونظر حوله ، وكان فى الامكان رؤية الطريق وأشجار الصفصاف على ضفة النهر وهى تختفى فى الظلمة من خلفهما . وعلى اليمين ، يمتد سهل مستو متسع كالسماء . وعلى البعد ، تتلألأ الاضواء على السهل هنا وهناك ، ومن المحتمل أنها تتلألأ على مستنقعات النباتات . والى الشمال بمحاذاة الطريق يمتد سطح تل تفسد البحيرات عليه أناقته ، وفى أعلى التل يتعلق الهلال الكبير الاحمر دون حركة يقنعه الضباب بعض الشىء ، وتحيط به غمائم صغيرة بدت كأنها تحيط به من كل جانب وكأنها تحرسه حتى لايهرب .

وبدت الطبيعة كلهـا كأنها قد تخللها اليـأس والمرض . وكانت الارض كامرأة ساقطة وحيدة فى حجرة مظلمة لا تحاول أن تسترجع الماضى ، كانت الارض تزدحم بذكريات الربيع والصيف وتنتظـر فى جمود قدوم الشتاء الذى لا مفر منه . وحيثما نظر الانسان ، كانت الطبيعة تبدو هادئة باردة مظلمة لا نهاية لعمقهـا ، وليس فى قـدرة كريلوف أو أبوجين أو الهـلال الاحمر اللون ان يصعد هـذه الهوة

وكلما اقتربت العربة من المكان الذى تتجـه اليه ، زاد قـلق ابوجين . فكان يتحرك ، ويقفز ، وينظر الى الأمام من فـوق منكب الحوذى . وتوقفت العـربة أخيرا أمام ظلمة قد غطيت فى جمال بستارة من القماش المخطط السميك ونظر أبوجين الى النوافذ المضاءة بالطابق الثانى ، وأخذ يتنفس بسرعة وبصوت عال ــ وقال وهو يصـطحب الطبيب الى الردهة ويدعك يديه فى اضطراب .

ــ ليست هناك أية أصوات تدل على الاضطراب .

ومضى وهو يجهد أذنيه علـه يسمع شيئا ، فى هذا السكون فلم تسمع أية أصوات أو وقع أقدام فى الردهة . وبدا المنزل كأنه يغط فى نوم عميق برغم الاضواء الساطعة .

وهـنا أمكن لأبوجين والطبيب ـ وكانا فى الظلمة حتى هـذه اللحظة ــ أن يرى كل منهما الآخر فى وضوح .... وكان الطبيب طويل القامة ، محنى المنكبين ، يدل ملبسـه على الاهمال ، ولم يكن وسيما . وكانت شفتاه اللتان تشبهان شفاه الزنوج تقريبا ، وأنفـه المدبب ونظرته المتراخية ، غير المكترثة تدل كلها على شىء كريه يجمع بين الغلظة والبرود والقـوة . وكان شعره الأشعث وصـدغاه الغائران ، وبياض شعر ذقنه هنا وهناك وشحوب جلده وعاداته غير الرقيقـة التى تتسم بالاهمال ، كان كل هـذا يوحى بفقر وحـرمان مألوفين ، وملل من الحياة ، وفقد الاهتمام بالناس . واذا نظرت الى هذا الشكل الذى يخلو من التعبير ، فلن تعتقد أن لهذا الرجل زوجة أو أن فى قدرته أن يبكى من أجل طفل . وكان أبوجين يمثل شـيئا

يختلف عن هـذا تمام الاختـلاف • كان رجلا قويا ضـخما جميلا ذا رأس وملامح واضحة ضخمة •

وكان يرتدي أحدث الملابس الأنيقة • وكان ثمة شيء ارستقراطي مهيب في مسلكه ؛ وفي سترته المحبوكة وفي شـعره الكث ووجهه الوسيم ، وكان يرفع رأسه وهـو يمشي ، ويبرز صـدره كثيرا الى الامام ويتكلم بصوت موسيقى ممتع على حين كان هناك ما يشبه الأناقة النسائية التي كشفت عن نفسها حينما أزاح الوشاح وسـوى شعره • ولم يفسد شحوبه ، وتردده الصبياني الذي كان ينظر به الى أعلى السلم وهو ينزع معطفه ، لم يفسد هذا الفكرة العامة أو يؤثر على مظهره الذي يدل على الشبع ؛ والصـحة ، والثقة بالنفس التي كانت تشع من كيانه كله •

وقال وهو يرقى السلم :

ـ ليس ثمة أحد هنا ، وليس هنـاك أي صوت أو حـركة • لنأمل أن ••

وقاد الطبيب خلال الردهة الى حجرة كبيرة ، بها بيانو ضـخم أسود اللون ، وثريا مدلاة من السقف يحيط بهـا غطاء أبيض غـير محبوك ، ومن هذه الحجرة ذهبا الى حجرة الاستقبال ، وهي حجرة ممتعة مريحة للغاية ، يكتنفها نوع من الشفق •

وقال أبوجين :

ـ اجلس يادكتـور وانتظر • وسأعود بعـد برهة • سأذهب وأخبرهم انك هنا •

وترك كيريلوف وحيدا ••• ولقد كان ترف الحجرة والشـفق الممتع بل ووجوده في هذا المنزل القريب غير المألوف مغامرة في حـد ذاتها • بيد أنها لم تترك عليه أي أثر مهما كان طفيفا • وجلس في مقعد كبير وأخذ يتأمل أصابعه الملوثة بحامض الكربوليـك • ولم يلحظ ظلة المصباح القرمزية اللون وصندوق الكمان ، غير أنه حينما اتجـه

بنظره الى ساعة الحائط وهي تحـدث صوتها الرتيب لاحظ ذئبا محشوا ، لا يقل عن أبوجين تقـه ضخامة وشبعا .

وكان كل شيء هادئا . وصاح شخص ما في احدى الحجـرات الاخرى قائلا :

ــ آه ...

بصوت مرتفع تحطم باب زجاجي من المحتمـل أن يكون أحد أبواب صوان الملابس ، وساد السكون ثانية . وبعـد خمس دقائق أو مايقرب من ذلك ، توقف كيريلوف عن تأمل يديه ، ورفع نظـره نحو الباب الذي اختفى أبوجين منه .

وكان أبوجين يقف بمدخل الباب ، ولكنه لم يكن الشـخص الذي كان قد غادر الحجرة من قبل . لقد فارقه مظهر الشبع ، والاناقة الرقيقة ، وارتسم على وجهه ويديه شيء لم يكن فزعا بالمعنى الصحيح أو حزنا وكان أنفه وشفتاه ، وشاربه وكل قسماته تتحرك حركة لا ارادية كأنها تريد أن تنتزع نفسـها من وجهه ، وكان هنـاك شعاع من الألم في عينيه .

وخطا أبوجين خطوات طويلة ثقيلة الى منتصف حجرة الاستقبال ، ثم انحنى الى الأمام وأخذ يتأوه ويلوح بقبضتيه .

ــ لقد خدعتني .

صاح أبوجين وهو يؤكد المقطع الوسيط في كلمة « خدعتني » . « خدعتني » تركتني . مرضت وأرسـلتني من أجـل الطبيب حتى يمكنها أن تهرب مع بابشـكي هذا القرد يا الهي .

ومشى أبوجين في ثقل نحو الطبيب ولوح بقبضتيه المتلتلتين في وجه الطبيب وزمجر قائلا :

ــ تركتني . خدعتني . ولم هـذا الكذب ؟ يا الهي ! يا الهي ولم هذه الخدعة والاحتيال القذر ، هـذه اللعبة الشيطانية وهذه الخيانة ؟ ما الضرر الذي سببته لها ؟ لقد تركتني .

وجرت الدموع على خديه . واستدار على عقبيه وأخذ يذرع الحجرة جيئة وذهابا . وقد بدا الآن أقرب الى الاسد منه فى أى وقت آخر ، وهو فى سترته القصيرة ، وسرواله الضيق الحديث الذى جعل رجليه تبدوان على قدر من النحافة لا يتناسب وجسمه . ومرت نظرة عابرة من حب الاستطلاع على ملامح الطبيب التى كانت تدل من قبل على عدم الاكتراث . ونهض ونظر أبوجين متأملا ثم سأله :

ـ ولكن أين المريض ؟

فصاح أبوجين وهو يضحك ويصرخ ، ويلوح بقبضتيه :

ـ المريض ! المريض ! انها ليست مريضة ؟ انهـــا أنثى لعينـــة يا للحقارة ! يا للوضاعة . فلا الشيطان نفســه ، كان فى قدرته أن يبتدع شيئا يعدل ما فعلته حقارة ودناءة . لقد أرسلتنى بعيدا حتى يمكنها أن تهرب ، أن تهرب مع هذا القــرد ، هذا الكلب الغبى ! هذا القواد ـ يا الهى ! وبودى لو كانت قد ماتت لن أتحمل هذا أبدا !

ووقف الطبيب جامــدا ، وارتعشت جفــون عينيه ، وامتــلأتا بالدموع وتحركت ذقنه من اليسار الى اليمين كلما تحرك وتســاءل الطبيب وهو ينظر حوله فى دهشة :

ـ معذرة . ما معنى هــذا كله ؟ لقــد مات طفلى منذ وقت قصير ؟ وزوجتى فريسة للحزن . وحيدة بالمنزل .... وليس فى استطاعتى الوقوف ، فلم أنم ثلاث ليال كاملة . وماذا وجدت ؟ لقد جعلتنى شريكا فى ملهاة سوقية ولقد أصبحت نوعا من المتاع الخاص بالمسرح . اننى .. اننى لا أفهم معنى ذلك .

وفتح أبوجين قبضته وألقى بورقة قد أطبق عليهـــا ؟ من ورق الخطابات على الارض وداس عليها كأنها حشرة يريد أن يحطمها .

وقال خلال أسنانه المطبقة وهو يهز قبضته أمام وجهه ، كأنمــا ثمة شخص قد داس على ثؤلول بقدمه :

ـ لم ألحظ شيئا ، ولم أدرك شيئا . لم ألحظ أبدا الطريقة التى كان يحضر بها كل يوم ؟ لم ألحظ أنه قد أتى اليوم فى عربة اننى أبله أعمى ... لم ألحظ أبدا . أبله اعمى !

فتمتم الطبيب قائلا :

ـ اننى لا أفهم معنى هذا ... انه امتهان محض للفرد . انه لسخرية بالألم البشرى . انه مستحيل . أنا لم أسمع شيئا من هذا القبيل فى حياتى .

ولم يقو الطبيب على التحديق وكرجل بدأ لتوه يدرك انه قد أهين اهانة بالغة ، هز كتفيه وقذف يديه الى أعلى وهو على المقعد غير قادر على الكلام .

ـ وهكذا لم تعد تحبنى ، انك تحبين شخصا آخر ، حسنا ولكن لماذا الخداع ! لماذا هذه الحيلة الدنيئة التى تدل على الخيانة صاح أبوجين باكيا .

ـ وما جدوى هذا ؟ وماذا يقصد به ؟ ما الضرر الذى سببته لك ؟ أيها الطبيب .

صاح فى عنف وهو يخطو نحو كيريلوف قائلا :

ـ لقد كنت شاهدا على غير ارادته شهد كارثتى ولن أخفى عنك الحقيقة . أقسم لك أننى أحببت هذه المرأة لقد عبدتها . لقد كنت عبدا لها ، ضحيت بكل شىء فى سبيلها وثار الشجار بينى وبين عائلتى ، وهجرت عملى ، وهجرت الموسيقى وغفرت لها أشياء ما كنت أغفرها لأمى أو أختى ... لم أنظر اليها فى قسوة أبدا .... لم أفعل شيئا يبرر هذا بالمرة . ما سبب الكذب اذن ؟ أنا لم أطلب حبا ، فلماذا هذا الخداع الدنىء . واذا لم تكنى لى الحب فلماذا لا تقولين ذلك بصراحة ؟ انك تعرفين آرائى عن الحياة !

وكشف أبوجين ـ باكيا مرتجفا ـ عن قلبه أمام الطبيب فى أمانة تامة وتكلم بحرارة وقد ضغط على قلبه ، وأخذ يكشف عن أسراره العائلية دون أى تردد ، وبدا كأنه سعيد حقا أن أفلتت هذه الأسرار منه . ولو كان قد قيض له أن يستمر فى الحديث ساعة أخرى على هذا النحو ، وأن يبوح بكل ما يجيش فى صدره ؟ لشعر دون شك بأنه أحسن حالا عن ذى قبل . ومن يدرى ؟ فلو أن الطبيب قد سمعه حتى النهاية وأظهر مشاركة وجدانية وودا ، لكان من المحتمل كما يحدث كثيرا أن يرضى أبوجين عن مصيره دون أن يشكو ودون أن يرتكب حماقات ليس لها مايبررها .... غير أنه لم يعد المقدر ان يحدث هذا الامر . اذ علا وجه الطبيب تغير ملحوظ فى أثناء حديث أبوجين . فتلاشى شعور عدم الاكتراث والدهشة اللذين ارتسما على قسمات وجهه وحل محلهما تعبير عن الحقد المرير . وغدت قسماته أكثر قسوة وصلابة وقبحا . وحينما أمسك أبوجين أمام عينيه بصورة امرأة جميلة ذات وجه قاس يخلو من التعبير كأنه وجه رجل ، سأل الطبيب عما اذا كان فى قدرة امرأة تحمل هذا الوجه أن تكذب ، قفز الطبيب على قدميه فجأة ، وفى عينيه بريق وحشى ، قائلا فى قحة ومؤكدا كل كلمة :

ـ لماذا تقول لى كل هذا ؟ ان هذا لا يعنينى ولن أنصت اليك .

وهنا بدأ يصيح ويضرب المنضدة بقبضته :

ـ انى لا أريد أسرارك التافهة . عليها اللعنة ! اياك وأن تحدثنى عن هذا الهراء . يبدو أنك تعتقد أننى ينقصنى المزيد من الاهانة . أترانى خادما يمكنك أن تسىء الى مشاعره دون أن ينالك عقاب ؟ كلا !

وتراجع أبوجين بعيدا عن كيريلوف وحملق فيه مشدوها .

ومضى الطبيب قائلا وذقنه تتحرك فى غضب :

ـ لماذا أتيت الى هنا بى ؟ لقد تزوجت لانه ينقصك شىء خير

من الزواج يمكنـــك أن تقوم به ؟ والآن تمثل هذا الدور وما به من مبالغـة للسبب نفســه ، ولكن ما علاقة هـذا بى ؟ فلتســتخدم لكماتك كما يفعــل الســادة ولتظهــر مثلك الانسانية ؟

وهنا نظر الطبيب الى صندوق الكمان :

ـ فلتغن بصوتك العميق ، ولتلعب على البورى ، ولتـبـسم كصغير خصى ، ولكن اياك أن تجرؤ على العبث بالآدميين . وان لم يكن فى استطاعتك أن تحترمهم ، فاتركهم وشأنهم .

فرد أبوجين وقد احمر وجهه :

ـ معذرة ! ماذا تعنى بهذا ؟

ـ أعنى أن العبث بالناس على هذا النحو أمر دنىء حقــير . انني طبيب وأنت تعتقد أن الاطباء ، وكل العاملين الذين لاتفوح منهم رائحة العطر والدعارة ، خدم لك ، أناس من النــوع الوضيع . افعــل كما يحلو لك غــير أنه ليس من حقك أن تستخدم امرأ يعانى ويتألم كمتاع من أمتعة المسرح .

فرد عليه أبوجين بنعومة وقد بدأت عضلات وجهه ترتجف من جديد ، الا انها كانت ترتجف بغضب هذه المرة :

ـ وكيف تجرؤ أن تقول هذا لى ؟

فصاح الطبيب وهوى بقبضته على المنضدة ثانية :

ـ كيف تجرؤ وأنت تعــلم أننى حزين أن تحضرنى الى هنــا لأنصت الى تلك الاشياء التى تنفس عن نفسك بهــا ! وما الذى يعطيك الحق فى أن تسخر من الحزن الذى يحس به شخص آخر .

فصاح أبوجين :

ـ انك مجنون . يا لك من شخص غير كريم . انني تعس للغــاية و .. و ... و ..

فرد الطبيب قوله .

ـ نعم ! لا تستخدم هذه الكلمة فهي لا تنطبق عليك . فالمدينون الذين لا يمكنهم أن يدفعوا قوائم الحساب ، يطلقون على أنفسهم كلمة « غير سعداء » ، وهؤلاء البلهاء الذين يعانون من البداهة يعتبرون أنفسهم غير سعداء أيضا .

فصاح أبوجين بصوت حاد قائلا :

ـ انك تنسى نفسك ياسيدى . فلأمثال هذه الكلمات يضرب قائلوها .... أتفهمنى ؟

وفتش أبوجين جيب سترته وعجل وأخرج حزمة من أوراق النقد واتنزع من بينها ورقتين . ورمى بهما على المنضدة ، ثم قال وفتحتا أنفه ترتجفان :

ـ هذا أجر الزيارة . ولقد نقدتك أجرك .

فصاح الطبيب وهو يزيح الورقات حتى سقطت على الارض :

ـ اياك ان تعرض على مالا . لايمكن رد الاهانات بالمال .

وواجه أبوجين والطبيب كل منهما الآخر ،وأخذا يتبادلان الاهانات التى لا يستحقها أى واحد منهما .

فمن المحتمل أنه لم يحدث فى حياتهما ، حتى ولو كانا يعانيان من الهوس ، ان نطقا بمثل هذا العدد من الملاحظات الجائرة ، القاسية السخيفة . ولقد ثارت فى كليهما الانانية التى يحسها كل من يقاسى ويتألم اذ يتميز المتألمون بصفات الانانية والغضب والجور والقسوة ، وتقل قدرة أى واحد منهم على فهم الآخر ممن يتسمون بالغباء حقا . اذ أن المصائب تفرق بين الناس ولا تجمع بينهم . بل انه فى المواقف التى يكون من المفروض أن يجمع التشابه فى المصائب بين الناس ، فان الذين يقاسون يظهرون بمظهر أكثر جورا وأكثر قسوة من أولئك السعداء نسبيا .

فصاح الطبيب وهو يلهث :

ـ أرجوك أن تعيدنى الى المنزل .

ودق أبوجين جرسا يدويا ، فى حدة . وحينما لم يظهر أى شخص ردا على ندائه ، دق الجرس ثانية ، ثم رمى بالجرس على الارض وهو ثائر ـ وارتطم الجرس بالسجادة واحدث صوتا حزينا ، وأصدر أنة مستجدية متلاشية . وقدم أحد الخدم .

فصاح سيده واندفع نحوه بقبضتين مطبقتين :

ـ أين كنت تختبىء ، لعنة الله عليك ؟ أين كنت الآن ؟ اذهب وأرسل العربة لهذا السيد وهيىء العربة المقفلة لى .

وعندما استدار الخادم ليخرج صاح أبوجين :

ـ انتظر لا تدع أى خائن واحد يبقى فى المنزل غدا . ليخرجوا جميعا . سأستخدم خدما جددا أيها الخنازير .

واحتفظ أبوجين والطبيب بصمتهما وهما ينتظران العربتين . الا أن الاخير عاد الى تعبيره الذى يوحى بالشبع والترف والاناقة المتناهية . وذرع الحجرة جيئة وذهابا . وهو يومىء برأسه فى كبرياء وبدا كأنه يضع خطة لشىء ما . ولم تهدأ ثورته بعد ، غير أنه حاول أن يبدو كأنه لا يلاحظ وجود عدوه ؛ ووقف الطبيب بلا حركة ؛ قابضا على المنضدة باحدى يديه وهو ينظر الى أبوجين فى احتقار عميق كريه ساخر ، بشعور لايقوى عليه الا الفقراء البائسون حينما يواجهون الشبع والاناقة . وبعد قليل ، حينما كان الطبيب فى مقعده بالعربة وهو فى طريقه الى منزله ، كانت عيناه تحتفظان بتعبيرهما من الازدراء . وكان الليل أشد ظلمة مما كان عليه منذ ساعة مضت . واحتجب الهلال الكبير الأحمر وراء التل وتناثرت الغمائم التى تحرسه رقعا داكنة حول النجوم . وكان فى استطاعة المرء أن يسمع وراءه صرير العجلات على الأرض ؛ ولحقت عربة مقفلة ذات ألوان حمراء بالطبيب . لقد كان أبوجين عازما على التحدى واتيان الحماقات .

وطوال الطريق لم يفكر الطبيب فى زوجته أو ابنه أندريا ، ولكن فى أبوجين وأولئك الذين يقطنون المنزل الذى غادره منذ فترة . ولقد كانت أفكاره جائرة قاسية . فقد لعن أبوجين وزوجة أبوجين وبابشنسكى ، وكل شخص يعيش فى شفق وردى معطر ، وأسلم نفسه طوال الطريق للكراهية والازدراء نحوهم ، حتى أحس بألم فى قلبه وتأصلت فى نفسه جذور موقف معين غير عادل نحو هؤلاء الناس .

وسيمضى الوقت ، وسيمضى حزن كيريلوف ولكن هذا الموقف الجائر ، الذى لا يليق بقلب انسان لن يمضى بل سيبقى مع الطبيب حتى يوم وفاته .

# ناظر المحطة

بقلم بوشكين

أرنى رجلا لم يعلن ناظر محطة تغيير الجياد ، أو رجلا لم يتشاحن مع ناظر ما ، أرنى ذلك الرجل الذى لم يطلب مفكرته الخطيرة ليدون فى لحظة غضبه تلك الشكايات التى لاطائل وراءها عن السلوك التعسفى ؟ والفحة وعدم الحفاظ على المواعيد التى تعيب نظار المحطات ؟ أرنى ذلك الرجل الذى لا ينظر الى نظار المحطات كوحوش تتجسد على شكل انسان ، أو الذى لا يعتقد أنهم ليسوا خيرا من موظفين قد توفوا ؟ أو انهم ليسوا خيرا من لصوص ( ميروم ) ، بيد أننا سنتوخى العدالة ، وسنضع أنفسنا فى مكانهم ، وقد نصدر الحكم عليهم مع قدر أكبر من التسامح .

من ناظر المحطة ؟ انه شهيد حقيقى بين صغار الموظفين لا يحميه من الكلمات واللطمات سوى هذا اللقب الرسمى الذى يحمله ، حتى هذا اللقب قد لايحميه دائما ( انى أخاطب ضمير قرائى ) ، وما هو مدى صعوبة وظيفة هذا الطاغية كما يسميه الأمير فيازمسكى مازحا ؟ أليس عمله عملا شاقا حقا ؟ لا راحة بالليل أو بالنهار ! فالمسافر يصب على ناظر المحطة كل المضايقات التى تجمعت طوال الرحلة المملة ، الجو شنيع ، والطرق مريعة والسائق عنيد والجياد كسولة - وعلى الناظر يقع اللوم عن كل هذا . ان كل مسافر يدخل مسكنه المتواضع ويعتبره عدوا له ، أما الناظر فيعتبر نفسه محظوظا اذا ما نجح فى التخلص بسرعة من زائر غير مرغوب فيه . واذا حدث ولم تكن ثمة جياد ، فيا للسماء ويا للشتائم ، ويا للتهديدات التى تنصب على رأسه .

فيضطر الى الجرى من منزل الى آخر فى المطر والوحل ، وهو يخرج الى الظلة حينما تثور العاصفة ، وتنتشر ثلوج الشتاء ، حتى ينعم بلحظة من الراحة بعيدا عن صياح المسافر الغاضب ولكزه ، وقد يصل جنرال فيعطيه الناظر وهو يرتجف مجموعتين من الجياد ، وقد حجزت احداهما من قبل لعربة البريد ويغادر الجنرال دون كلمة شكر ... وبعد دقائق قد يصل الى أذنيه صوت الجرس ويلقى رسول رسمى على المنضدة أمرا باعداد خيول جديدة . زن كل هذه الظروف ، وسيمتلىء قلبك بالعطف الصادق بدل الغضب ، واليك بضعة كلمات أخرى عن الموضوع .

لقد سافرت فى كل أنحاء روسيا فى خلال السنوات العشرين ؛ وأعرف كل الطرق تقريبا ولقد عرفت أجيالا عدة من السائقين ، فليس ثمة ناظر محطة لا أعرفه ولم أتعامل معه . وانى لأرجو أن أنشر فى وقت غير بعيد حصيلتى من الملاحظات المثيرة للانتباه التى جمعتها أثناء أسفارى ، اما الآن فيكفينى القول بأنه قد أسىء تصوير جنس نظار المحطات للجمهور . ان هؤلاء النظار الذين هم محط كثير من السباب ـ كقاعدة عامة ـ أناس مسالمون ، ذوو طبيعة تميل الى المجاملة والاختلاط ، ولا يتميزون بشعور قوى بما لهم من حقوق وليسوا بأية حال بخلاء . ويمكن للمرء أن يستخلص من أحاديثهم كثيرا مما هو غريب ونافع ، ويرتكب كثيرون من المسافرين الأجلاء خطأ كبيرا حينما يهملون هذا الأمر . أما عن نفسى ، فأعترف أننى عندما أسافر فى مهمة حكومية أفضل حديثهم عن أحاديث موظفى الدرجة الثانية .

سوف يستخلص القارىء أن لى بين هذه الفئة الجديرة بالتقدير أصدقاء . نعم فثمة واحد منهم له ذكرى عزيزة على للغاية .

فلقد جمعتنا الظروف فى فترة ما من حياتى ، وتلك هى قصته التى أنوى أن أقصها على قرائى ان سمحوا لى بذلك :

لقد قيض لي في مايو عام ١٨١٦ أن أسافر الى مقاطعة س بطريق لم يعد له وجود الآن . وكنت أشغل وظيفة موظف بسيط وكنت أسافر في عربة عامة ، اذ كانت مواردي لا تسمح لي بأكثر من جوادين ، وكان هذا يدعو نظار المحطات الى معاملتي دون أدب كثير ، وكثيرا ما كنت أضطر الى أن آخذ عنوة ما كنت أعتقد أنه حقي . وكنت شابا مندفعا وكان ذلك سببا لحنقي ذات مرة على دناءة ناظر ما وجبنه حينما أعطى أحد كبار الموظفين تلك الجياد التي أعدت لاستعمالي ؛ وقد أخذت وقتا طويلا حتى اعتدت أن يتخطاني خادم جلف متملق ؛ أثناء تقديم أحد ألوان الطعام على منضدة حاكم . أما الآن فتبدو هاتان الحادثتان سنة الطبيعة . وعلى أية حال ما الذي سيحدث لنا إن حل محل القاعدة التي يقبلها الجميع وهي قاعدة ، فلنخضع مرتبة لمرتبة أخرى . قاعدة أخرى مثل «فليخضع عقل لعقل آخر» ؟ يا للمشاحنات التي ستظهر أو من هم الذين سيخدمهم الخدم أولا ؟ ولكن فلنعد الى قصتي .

كان اليوم حارا ، وكنت على بعد ثلاثة فراسخ من محطة تغيير الجياد في س ، وبدأ المطر على شكل رذاذ ؛ وبعد دقيقة كانت شآبيب المطر قد أغرقتني . وعند وصولي الى المحطة كان أول همي هو تغيير ملابسي بأقصى سرعة ممكنة ، وكان شاغلي الثاني هو أن أطلب شايا . فصاح ناظر المحطة : « دينا ، أعدي غلاية الشاي ( الساموفار ) وأحضري بعض القشدة » ، وفور هذه الكلمات خرجت فتاة في الرابع عشر من عمرها أو ما يقرب من ذلك من خلف حائط يقسم الحجرة الى شطرين وجرت الى المظلة ، وأخذت بجمالها فسألت ناظر المحطة :

ــ هل هذه ابنتك ؟

فأجاب وعليه مظهر الرضا :

ــ نعم : وانها لفتاة ذكية ، ألمعية ، مثلما كانت أمها .

وفي هذه اللحظة راح يدون أوامري ، في حين أخذت أتفحص

الصور التى كانت تزين مسكنه النظيف المرتب رغم تواضعه . لقد كانت الصور ترمز الى قصة الابن الضال . ففى الصورة الاولى كان هناك شيخ وقور وقد ارتدى رداء النوم ووضع غطاء الرأس الذى يلبس عند النوم أيضا ، وهو يقول وداعا لشاب قلق يتقبل الدعاء وكيسا من المال فى عجلة . أما الصورة الأخرى فكانت تظهر فى تفاصيل واضحة السلوك المنحل للشاب وهو جالس الى منضدة ومن حوله أصدقاء خادعون ونساء لايعرفن الخجل . وهناك صورة ثالثة للشاب وهو محطم فى ملبس مهلهل وقبعة مائلة ، يرعى الخنازير ويقتسم غذاءهم ، وكان وجهه يعبر عن حزن دفين وندم عميق ثم تأتى الصورة الرابعة فى المجموعة فتظهر عودة الشباب الى والده الشيخ الطيب وهو ما زال فى ملابس النوم يجرى الى الخارج ليلقى ابنه ، فيركع الابن الضال عند قدميه ، وفى مؤخرة الصورة ترى الطاهى يذبح عجلا سمينا ، والابن الاكبر يسأل الخدم عن سر هذه الاحتفالات ، وقرأت مايناسب كل صورة من أبيات الشعر التى دونت أسفل كل صورة ؛ ولا يزال كل هذا حيا فى ذاكرتى ، زهريات ملأى بزهور البلسم ، والفراش ذو الزخرفة الزاهية والى ماغير ذلك من الاشياء التى كانت تحيط بى . وما زلت أرى أمام ناظرى رب المنزل نفسه وكان رجلا فى الاربعين من عمره أو ما يقرب من ذلك مرحا صحيح الجسم ، فى معطفه الأخضر الطويل وقد زين بثلاثة أوسمة تتدلى من شرائط قد بهتت ألوانها .

وما كدت أدفع أجر السائق ، حتى أتت دينا بالغلاية ، ولم تبطىء الطروب الصغيرة فى ملاحظة ذلك الاثر الذى أحدثته فى نفسى وغضت من عينيها ؛ الزرقاوين الواسعتين متظاهرة بالجد دون أدنى علامات للاضطراب ومثلها مثل فتاة خبرت الحياة الى حد ما ؛ فقدمت الى والدها كأسا من الخمر ، وقدمت الى قدحا من الشاى ؛ وأخذنا نحن الثلاثة نتجاذب أطراف الحديث ، كأنما قد عرف كل منا الآخر منذ أجيال .

وأعدت الخيول ولكنني كنت على غير استعداد لفراق الناظر وابنته وأخيرا استأذنت منهما ؛ وتمنى الوالد لى رحلة سعيدة ، ورافقتنى الابنة حتى العربة ؛ وتوقفت فى الظلة وسألتها راجيا أن تسمح لى بتقبيلها فقبلت ...

وانى لأذكر قبلات لا حصر لها ، منذ أن بدأت أستمتع بهذا اللهو بيد أنه مامن قبلة قد تركت هذه الذكرى الممتعة التى لاتمحى.

ومرت سنوات عدة وتآمرت الظروف مرة ثانية وأخذتنى على الطريق نفسه والى الاماكن نفسها وتذكرت ابنة الناظر وفرحت لتصور رؤيتها مرة ثانية ، ثم فكرت فى أن الناظر ربما قد فصل من عمله وانه من المحتمل أن تكون دينا قد تزوجت . وعبرت بخاطرى أيضا فكرة موت الرجل أو ابنته ؟ واقتربت من محطة ( س ) وبى هواجس حزينة .

ووقفت جيادى أمام منزل الناظر الصغير ، وحينما دخلت الحجرة عرفت للوهلة الاولى الصور التى تمثل حياة الابن الضال . كانت المنضدة وكان الفراش فى مكانيهما القديمين ، غير أنه لم تكن هناك أزهار على قاعدة النافذة وكان كل شىء فى الحجرة يحكى قصة التآكل والاهمال ، وكان ناظر المحطة نائما تغطيه سترة من فراء الخراف ، وأيقظه وصولى فجلس فى فراشه .... انه سمسون فيرين عينه ، غير أنه قد هرم ، وفى حين كان يدون أوامرى لاحظت شعره الأشيب ، والخطوط الغائرة على وجنتيه غير الحليقتين كما لاحظت كتفيه المقوستين .

وغلبتنى الدهشة ... ان ثلاثة أو أربعة أعوام قد غيرت رجلا قويا ممتلئا الى عجوز ضعيف هزيل ، فسألته :

ــ ألا تذكرنى ، اننا أصدقاء قدامى .

فأجاب فى حدة مغيظا محنقا :

ــ من المحتمل ، فالطريق ملىء بالحركة وكثير من المسافرين يأتون هنا .

ومضيت فى الكلام :

ـ وكيف حال دينا ؟

فنظر الشيخ الى نظرة غاشية قائلا :

ـ الله أعلم .

فسألته :

ـ هل تزوجت اذن ؟

وتظاهر الشيخ بأنه لم يسمع سؤالى واستمر فى قراءة الأوامر التى أصدرتها فى همس ... فأقلعت عن السؤال وسألته أن يأمر باعداد غلاية الشاى . وبدأت أحس بوخز الفضول ، وأملت ان الخمر ستحل لسان صديقى العجوز .

ولم أكن مخطئا فى تقديرى ، اذ ان الشيخ لم يرفض الكأس المقدمة . ولا حظت ان « الروم » قد شتت كآبته . وما ان تناول الكأس الثانية حتى أصبح يتكلم ويتذكر أو على الاقل يدعى انه تذكرنى وعرفت من شفتيه قصة أثارت فى ذلك الوقت انتباهى وشغفى .

وبدأ الرجل حديثه قائلا :

« اذن أنت تعرف دينا ، ومن لم يعرفها ؟ دينا ! دينا ! يالها من فتاة . لقد اعتاد كل من أتى الى هنا أن يمتدحها ، ولم يكن فى وسع أى شخص أن يقول شيئا ضدها . واعتادت النساء أن يعطينها الهدايا ، فهذه تعطيها منديل رأسها ، وتلك تعطيها قرطا . وحينما يأتى السادة الى محطة تغيير الجياد ، فانهم يتوقفون هنا عن قصد ، وكانوا يتوقفون من أجل الغداء أو العشاء ولكنهم فى الواقع كانوا يتوقفون من أجل النظر اليها مدة أطول . مهما غضب أحد السادة فانه يهدأ فور رؤيتها ويتكلم معها فى رقة . قد لا تصدق ان قلت ان الرسل والمبعوثين الرسميين كانوا يتكلمون معها حوالى النصف ساعة، وكان بيتى يعتمد عليها وكان لديها من الوقت ما يسمح لتنظيف المنزل

وللطهى والقيام بكل شيء . وأما كأبله لم يكن في قدرتي أن أبعد نظرى عنها ، ولم يكن في استطاعتي أن أكبت فرحي بهـا . ألم أحب دينا ؟ ألم أول طفلتي رعايتي وحبي ؟ ألم تعش حياة رغدة ؟ بيد أنك لا يمكنك أن تبعد المصائب بالصلاة ، فليس ثمة هروب من القدر .

وهنا أخذ يصف لى وصفا دقيقا المصيبة التي لحقت به :

« ففى ليلة شتاء منذ ثلاث سنوات ، وعلى حين كان الناظر يخط لنفسه دفتر حسابات جديدا ، وعلى حين كانت ابنته تجلس خلف الحاجز تحيك لنفسها رداء ، وقفت عربة ( ترويكا ) ودخل الحجرة مسافر بقبعة كيركاسية ومعطف مما يلبسه العسكريون ، وطلب جيادا . وكانت الجياد على سفر . وحينما عرف المسافر ذلك ، رفع عقيرته وسوطه ، غير أن دينا - وقد ألفت مثل هذه المناظر - خرجت تجرى من خلف الحاجز وخاطبت المسافر في رقة ، وسألته عما اذا كان يريد شيئا يأكله ، وأحدث ظهور دينا أثره المعتاد ، وفارق المسافر غضبه ، ووافق على انتظار الجياد وطلب عشاء .

وحينما خلع قبعته المبللة الشعثاء والمصنوعة من الفراء ، وحل وشاح عنقه ، وألقى بمعطفه ، بدا أنه فارس شاب نحيل ، ذو شارب صغير أسود وسلك كما لو كان منزل الناظر منزله ، وسرعان ما أخذ يتجاذب أطراف الحديث مع الناظر وابنته في مرح . وقدم العشاء . وفي تلك الاثناء عادت الجياد وأمر الناظر بوضعها في زحافة المسافر دون أن تطعم . بيد انه حينما عاد الى حجرته وجد الشاب راقدا على الأريكة دون وعى تقريبا . لقد شعر المسافر بالاغماء ، وآلمه رأسه ، ولم يعد قادرا على السفر ... شيء لايملك المرء حياله أمرا !

وتنازل الناظر عن فراشه له ، واستقر الرأى على استدعاء الصيدلى اذا لم يصبح المريض أحسن حالا في الصباح .

وفي اليوم التالى ساءت حالة الفارس ، وذهب خادمه على جواده الى المدينة المجاورة بحثا عن الصيدلى . ووضعت دينا منديلا مبللا بالخل

حول رأسه وجلست بجانب الفراش تحيك رداءها ؟ وكان المريض يئن أثناء وجود الناظر ولم يكن في قدرته أن ينطق بكلمة واحدة ، وان كان قد شرب قدحين من القهوة وطلب عشاء وهو يئن ولم تترك دينا فراشه لحظة واحدة . وظل يستعطف من أجل الشراب ، وظلت دينا تحضر له أناء من عصير الليمون قد أعدته بيديها وكان المريض يبلل شفتيه ؟ ويضغط على يد دينا بقبضته الضعيفة كل مرة يعيد اليهـا الاناء ؟ كي يظهر لهـا اعترافه بالجميل ، ووصل الصيدلي في وقت العشاء وتحسس نبض المريض وخاطبه بالالمانية وأعلن بالروسية انه في حاجة الى الراحة ؟ وانه سيصبح في وسعه أن يستأنف رحلته في مدى يومين وسلمه الفارس خمسا وعشرين روبية كأجر له عن زيارته ودعاه للعشاء . وقبل الصيدلي الدعوة وأخذ الاثنان يأكلان بشهية ؟ وشربا زجاجة من الخمر ؟ وأعجب كل منهما بالآخر أي اعجاب !

ومر يوم آخر واستعاد الفارس صحته تماما . وكان مرحا للغاية ولم يترك الدعابة التي كانت تارة مع دينا وتارة مع النـاظر ، يصفر الالحان أحيانا ويجاذب المسافرين أطراف الحديث أحيـانا أخرى ؟ ويدون مايطلبونه من جياد في دفتر الحسـابات ، الأمر الذي جعل الناظر الطيب يتعلق به الى الحد الذي لم يطق فيه أن يفترق عن هذا النزيل اللطيف في صباح اليوم الثالث .

وكان اليوم يوم أحد ، واستعدت دينا للذهاب الى الكنيسـة وأحضرت زحافة الفارس أمام المنزل ، وودع الفارس الناظر ، وكافأه في سخاء عن المبيت والغداء ، وقال وداعا لدينا هي الاخرى وعرض أن يصحبها في عربته حتى الكنيسة ، التي كانت في الطرف الآخر من القرية . وبدا على دينا الارتباك ... فقال والدها :

ــ ومم تخشين ؟ ان سـيادته ليس ذئبا ــ هو لن يعضـك ، دعيه يوصـلك الى الكنيسة ..

ودخلت دينا الزحافة وجلست الى جانب الفارس ، وقفز الخادم الى مكان السائق ، وصفر السائق وعدت الجياد حتى اختفت .

ولم يكن فى قدرة الناظر التعس أن يفهم أبدا كيف سمح لدينا ابنته أن تذهب مع الفارس ، وكيف أنه كان أعمى ! ما الـذى اعتراه ! ولم تكد تمر نصف ساعة حتى بدأ يشـعر بشيء ينهش قلبه ، وتملكه القلق الى حد انه لم يكن فى وسعه أن يسيطر على نفسه ، وذهب الى الكنيسة ليبحث عنها . واذا ما اقترب من الـكنيسة رأى الناس خارجين ، غير أن دينـا لم تكن فى فناء الكنيسة أو تحت ظلتهـا . وهرع الى داخل الكنيسة ، لقـد غادر الكاهن المذبح ، وكان خادم الكنيسة يطفىء الشموع ومازالت امرأتان عجوزتان ترددان صلواتهما فى ركن من أركان الكنيسة ، ولكن لم يكن هناك فتاة تدعى «دينا» واضطر الناظر علىغير رضا أن يسأل خادم الكنيسة : هل رأى دينا فى أثناء الصلاة ؟ فيرد عليه الخادم انه لم يرها .

وعاد الناظر الى منزله أقرب الى الموت منه الى الحياة ، لم يكن ثمة غير أمل واحد ... لابد وأن دينا قد ذهبت بما هى عليه من طيش الشباب الى المحطة التالية حيث تقيم أمها فى « التعميد » . وانتظر عودة الجياد التى أرسلها مع العربة وهو فى قلق مؤلم .

غير أن اليوم انقضى ولم يعـد السـائق ثانية . وفى الليل عاد السائق وحيدا مخمورا يحمل من الأنباء أسوأها ، لقد غادرت دينا المحطة التالية مع الفارس !

ولم يستطع العجوز أن يتغلب على تلك الكارثة التى ألمت به ، وأوى الى فراشه فى تلك الليلة ـ ذلك الفراش الذى رقد فيه المحتال الشاب فى اليوم السابق ـ واستعرض الناظر الظروف وأدرك الآن أن مرض الشاب لم يكن الا خداعا . وألمت بالشيخ العجوز التعس حمى عنيفة ، وحمل الى بلدة « س » وعين مكانه ناظر آخر مؤقتـا وعنى به ذات الطبيب الذى سبق أن عاد الفارس وأكد له الطبيب أن

الفارس كان فى أتم صـحة ، وأنه قد أدرك نواياه السيئة فى ذلك الوقت ، بيد أنه لم يقل شيئا خوفا من سوط الفارس . وسواء أكان الألماني يتكلم الحق أم يريد أن يظهر شفافيته فحسب ، فإنه لم يقدم الى المريض المسكين أقل عزاء .

وماكاد الناظر يستعيد صحته حتى طلب الى المسئولين فى بلدة « س » أن يمنحوه أجازة لمدة شهرين ؛ ودون ان يفصح لأى شـخص بكلمة واحدة عن نواياه ، خرج سيرا على الاقدام ليبحث عن ابنته . واكتشـف من دفتر الوافدين أن الكابتن مينسـكى قد رحـل من سمولنسك الى بطرسبرج وقال الحوذى الذى ساق عربته ان دينـا كانت تبكى طوال الطريق ، ولو أنها فيما يبدو قد رحلت طواعية . فحدث الناظر نفسه :

ـ اذا أراد الله سأعود الى بيتى بحملى الضال .

ووصل الى بطرسبرج ملهما بهذه الفكرة ، وأقام فى معسـكر فرقة أزمالوف ، فى منزل ضابط متقاعد ، وزميل قديم له فى السـلاح منذ أيام خدمته العسكرية . ومن هنـا بدأ بحثه ، وسرعان ما اكتشف أن الكابتن مينسكى فى بطر سبرج يعيش فى حانة ريموتوف وعقد الناظر العزم على رؤيته .

وفى الصباح المبكر وصل الى منزل الفارس ؛ وطلب من الخادم أن يخبر سيادته أن محاربا قديما يود رؤيته . وكان الخادم يمسح حذاء ركوب على حامل أحذية ، وأخبره أن سيده نائم وأنه لايستقبل أى شخص قبل الحادية عشرة . وغادر النـاظر المكان وعاد فى السـاعة المحددة . وخرج مينسكى نفسه فى لبـاس نومه وطربوش قرمزى اللون . فسأل :

ـ ما الذى يمكن أن أوديه لك يا أخى ؟

فجاش قلب الشيخ بالانفعال وصعدت الدموع الى عينيه ؛ ولم يكن فى وسعه أن يفعل أى شىء غير أن يتمتم فى نبرات مرتجفة :

ـ سيدى ، اكراما لله ياسيدى ...

فألقى عليه مينسكى نظرة سريعة ، وغدا وجهـه قرمزى اللون فاصطحبه بيده الى حجرته ، وأغلق الباب من الداخل واستمر الرجل المسن يقول :

ـ ان مافقـد قد ذهب الى الابد ، ولكن اعطنى دينـا ابنتى المسكينة ، لقد نلت لهوك منها ولن تجنى شيئا من تحطيمها .

فقال الشاب وقد تحركت مشاعره بكل تأكيد :

ـ ان ماحـدث لايمكن تغييره ، لقد أسـأت اليك وانى على استعداد أن أسألك المغفرة ، ولكن لاتظن أنه فى قدرتى أن أهجـر دينا ، ستكون سعيدة . انى أعدك بذلك . وماذا تريد منها ؟ انها تحبنى . انها لن تألف حياتها القديمة . ولن يمكنك ولن يمكنها هى أن تنسى أبدا ماحدث .

ثم وضع شيئا فى كم الناظر وفتح الباب ، ووجد الرجل العجوز نفسه فى الشارع دون أن يدرى كيف حدث هذا .

ووقف دون حراك فترة طويلة ، ولاحظ أخيرا أن هناك حزمة من الورق فى كمه . فأخرجها وبسـط عددا من الاوراق المطبقة من فئة الخمس والعشر روبيات ، وصعدت الدموع الى عينيه من جديد ، دموع الحنق ، فضغط هذه الأوراق بكفه حتى صارت كرة وألقى بها على الارض وداسها تحت نعله وسار فى طريقه ... وبعـد أن سار بضع خطوات وقف ساكنا وفكر ثانية ... ورجع الخطـوات التى قطعها ، غير أن الاوراق لم تكن هنـاك . وعندما رآه شـاب أنيق جرى الى عربة ( دروشكى ) وصعد اليها صائحا « أسرع » ، ولكن الناظر لم يحاول أن يتبعه . واستقر رأيه على الذهاب ثانية الى المحطة غير أنه أراد أولا أن يرى ابنته دينا المسكينة ولو مرة واحدة .

وهكذا عاد الى مسكن منسـكى بعد يومين . غير أن خادمه العسكرى أخبره فى غلظة « ان سيده لايقابل أحدا » ، وأزاحه بكتفه

من الصالة وأقفل الباب فى وجهه بعنف . ووقف الناظر بالخارج بعض الوقت ثم غادر المكان .

وفى ذلك المساء كان يسير فى طريق نيتينيا ، بعد أن حضر الصلاة بكنيسة ، جميع الشهداء . ومرت عربة أنيقة بجانبه وعرف الناظر مينسكى ، ووقفت العربة بجانب منزل من ثلاث طوابق ، أمام الباب ، وهبط الفارس الى السقيفة . ومر خاطر سعيد بذهن الناظر ، واستدار حتى وصل الى العربة وسأل الحوذى :

ـ لمن هذا الجواد يا أخى ! أليس جواد مينسكى ! ؟

فقال الحوذى :

ـ نعم انه ملك مينسكى . لماذا تسأل ؟

فأجاب الناظر :

ـ سأقول لك ؟ لقد أمرنى سيدك أن أحمل رسالة الى دينا ، ولقد نسيت أين تسكن دينا هذه ؟

فرد الحوذى :

ـ انها تسكن هناك فى الطابق الأول . وهو معها الآن ..

فقال الناظر وقد اهتز قلبه اهتزازا غريبا :

ـ الأمر سواء ، شكرا لمساعدتك ، ولكنى يجب أن أبر بوعدى

وبهذه الكلمات صعد السلم .

وكان الباب مغلقا ودق الجرس ومرت بعض لحظات فى ألم وترقب ودار المفتاح فى القفل وفتح الباب . فسأل :

ـ هل تسكن افدوتيا سمسونوفنا هنا ؟

فأجابت الخادمة :

ـ نعم ، وماذا تريد منها ؟

ودخل الناظر الردهة دون أن يجيب ، فنادت الخادمة عليه :

ـ لا يمكنك أن تدخل . ان أفدوتيا سمسونوفنا لديها ضيوف

ولكن الناظر لم يأبه واستمر في المسير . وكانت الحجرتان اللتان مر بهما مظلمتين ، أما الثالثة فكانت مضيئة . واتجه نحو الباب المفتوح . ثم توقف ، لقد كان مينسكي يجلس غارقا في التفكير في تلك الحجرة التي أثثت بأثاث فاخر . وكانت دينا ترتدي أحدث الأزياء ، وتجلس على ذراع مقعده ، كأنها تركب جوادا ، وكلا رجليها على أحد جانبي الجواد على الطريقة الانجليزية ، كانت تنظر في رقة الى مينسكي وتلف خصلات شعره الأسود حول أصابعها ، التي كانت تتلألأ بالجواهر ؛ مسكين أيها الناظر ! لم يحدث قط أن بدت ابنته جميلة الى هذا الحد ، وراقبها في اعجاب لاشعوري وصاحت دون أن ترفع رأسها :

ـ من هناك ؟

ووقف صامتا . وحينما لم تتلق ردا ، نظرت دينا الى أعلى ... فصرخت ووقعت على السجادة . وانزعج مينسكي واندفع ليرفعها ، ولكنه لمح الناظر العجوز بجانب الباب ، فترك دينا واقترب من الناظر ، وهزه في غضب :

ـ ماذا تريد ؟

قالها من بين أسنان مطبقة :

ـ لماذا تتبعنا كاللص ؟ هل تبغي قتلي ؟ اخرج .

ثم أمسك بياقة الرجل المسن ودفعه بيد قوية ناحية السلم .

وعاد العجوز الى مسكنه ، ونصحه صديقه أن يتقدم بشكوى ، بيد أن الناظر رفض هذه الفكرة بحركة من يده بعد أن قلب الأمر على وجوهه وقرر أن يترك الامور على ماهي عليه .

وغادر بطرسبرج بعد يومين وعاد الى محطته حيث استأنف عمله السابق . وقال مختتما قصته :

ــ ولقد مرت قرابة الثلاثة أعوام وأنا أعيش دون دينا ، دون أية كلمة منهـا . والله وحده يعلم ان كانت قد توفيت أو هى على قيد الحياة . كل شيء ممكن فهى ليست بالفتـاة الأولى ولن تكون الأخيرة التى يخدعها متأنق يمر بها يحتفظ بها فترة ثم يهجرها . فثمة كثيرات من الشابات البلهاوات مثلها فى بطرسبرج يرتدين الحرير والمخمـل اليوم ؟ وغدا يكنسن الميادين مع الرعاع . وأحيانا أفكر أن دينا تذوى وتتهالك هناك . اننى لا أستطيع أن أقلع عن هذه الأمنية الآثمة .. فلكم أتمنى لو كانت فى قبرها ...

وهكذا كانت قصة صديقى الناظر ، قصة تخللتها الدموع ، التى كان يمسحها بذيل سترته ، كما كان يفعل تيرينتينش المتحمس فى القصة الشعرية التى كتبها ديمتريف . ولقد كانت الخمر الى حد ما سبب هذه الدموع فلقد احتسى خمس كئوس فى أثناء سرد قصته ، وبرغم ذلك فقد أثارتنى هذه الدموع .

وحينما استأذنت منه ، مضى وقت طويل قبل أن يمكننى أن أبعد التفكير فى الناظر عن رأسى أو أقف التفكير فى دينا التعسة .

ومنذ وقت غير بعيد كنت أمر خلال قرية « س » الصغيرة ، وتذكرت صديقى العجوز . وعلمت أن محطة تغيير الجياد التى كان يتولاها لم يعد لها وجود . ولم يعطنى أحد اجابة مرضية على سؤالى :

ــ ألا يزال الناظر حيا ؟

وشعرت برغبة فى زيارة الأماكن التى أعرفها ، فاستأجرت جيادا وذهبت الى قرية « ن » .

كان الوقت خريفا ، والغمـام الداكن يغطى السمـاء ، وريح باردة تهب على حقـول القمح الخـالية ، حاملة فى طريقها الأوراق الحمر والصفر من الأشجار ووصلت الى القرية قبل غروب الشمس ووقفت أمام منزل الناظر . وخرجت الى الظـلة امرأة ممتلئة ( حيث قبلتنى دينا مرة ) وأجابت على استفساراتى بأن الناظر القديم قد

توفى منذ عام وأن منزله أصبح ملكا لأحد صانعى الخمر وأنها زوجة صانع الخمر هذا .

وندمت على هذه الرحلة الفاشلة ، والسبع روبيات التى أنفقتها سدى ، وسألتها :

ــ وماسبب وفاته ؟

فقالت المرأة :

ــ لقد شرب حتى الموت .

ــ وأين دفن ؟

فأجابت :

ــ خارج القرية الى جانب زوجته

وسألتها عما اذا كان من الممكن أن يصحبنى أحد الى قبره . فقالت :

ــ بكل تأكيد ... فانكا ... فانكا . دع هذه القطة جانبا وخذ السيد الى المقابر وأره قبر الناظر

وجرى صبى مهلهل الثياب ، أحمر الشعر ، ذو عين واحدة ، وقادنى حتى نهاية القرية .

وسألته فى الطريق :

ــ هل كنت تعرف الناظر ؟

ــ نعم . عرفته . لقد كان يعلمنى كيف أصنع الصفارات ، وحينما كان يخرج من الحانة ، رحمه الله ، اعتدنا أن نجرى خلفه ونقول « ياعم ، ياعم » اعطنا بعض البندق ، وكان يعطينا البندق . وكان دائما يلعب معنا .

ــ وهل يسأل المسافرون عنه دائما ؟

ــ لم يعد هناك مسافرون كثيرون ، الا قاضى الحكومة وهو

لايفكر فى الموتى . غير أنه كانت هنـاك سيدة فى هـذا الصيف ، وسألت عن النـاظر القديم وذهبت الى قبره .

فسأله فى شغف :

ـ وأى نوع من السيدات هى ؟

فقال الصبى :

ـ سيدة جميلة . كانت فى عربة تجرها ستة جياد ومعها ثلاثة أطفال ومربية وكلب أسود ، وحينما قالوا لها ان النـاظر قد توفى ، بكت وقالت للأطفال « ابقوا فى أماكنكم هادئين » وسـأذهب الى المقبرة ، وتقدمت لأصحبها الى هناك . ولكنها ردت قائلة انى أعرف المكان . واعطتنى قطعة نقود من خمس كوبيكات يالها من سـيدة عطوفة .

ووصـلنا الى المقبرة ، مكان موحش دون سـياج تناثرت فيه الصلبان الخشبية ، ولم يكن هناك شىء يحميه من أشعة الشمس ، ولم أر قط فى حياتى مقابر تبعث على الحزن مثل هذه المقابر .

وقفز الصبى على كومة من الرمل نبت عليها صليب أسود يحمل أيقونة من النحاس وقال :

ـ هذا قبر النـاظر القديم

وسألت الطفل :

ـ وهل أتت السيدة الى هذا المكان ؟

فأجاب قائلا :

ـ نعم . ولقد رأيتها من بعيد ترتمى فوق القبر . وظلت راقدة فترة طويلة ، ثم عادت الى القرية ونادت على القسيس وأعطته بعض المال وغادرت المكان وأعطتنى قطعة نقود فضية ذات خمس كوبيكات .

وأعطيت أنا بدورى الصبى الصغير قطعة نقود فضية ذات خمس كوبيكات ولم أندم على رحلتى أو السبع روبلات التى أنفقتها ..

# الطلقة

بقلم بوشكين

كنا نقيم فى مدينة ميلسه الصغيرة ، والكل يعرف ماهى حياة ضابط الجيش • مران وركوب خيل بالصباح ، وعشاء فى منزل قائد الفرقة ، أو فى حانة أو أخرى ، وخمر وميسر فى بقية الليل • ولم يكن ثمة منزل واحد لم يغلق دوننا ، ولم تكن هناك فتاة واحدة فى سن الزواج ؛ وكنا نجتمع فى منزل أى واحد منا ؛ حيث لم يكن هناك ما ننظر اليه سوى سترتنا العسكرية •

ولم يكن بيننا سوى رجل واحد من غير العسكريين يناهز الخامسة والثلاثين ولذلك كنا نعتبره عجوزا ، ولقد أعطته خبرته ميزة كبرى علينا كما كان لعبوسه الدائم وطبيعته العنيفة ولسانه السليط أثر كبير فى عقولنا الشابة •

ولقد أحاط الغموض به ، فكان روسيا ـ فيما يبدو ـ وبرغم ذلك كان يحمل اسما أجنبيا • ولقد خدم فى سلاح الفرسان فى يوم من الايام ، واتيحت له كل فرصة لحياة حافلة بالنجاح ولايعرف أحد ، ما الذى دعاه الى أن يستقيل ويقيم فى مدينة صغيرة تعسة ، حيث كانت معيشته تجمع بين البخل والبذخ اذ كان يتنقل سيرا على الأقدام فى معطف اسود قديم ولكن منزله كان مفتوحا أمام ضباط فرقتنا • حقيقة ان العشاء الذى يقدمه لم يكن يتكون الا من صنفين أو ثلاثة أصناف ، يعدها جندى سابق ، بيد أن الشمبانيا كانت تسيل على منضدته دون عائق • ولم يكن هناك من يعرف مصدر ثروته أو دخله ، ولم يجرؤ أحد على أن يسأله عن ذلك • وكانت مكتبته زاخرة بالكتب ، وكان معظمها مراجع عسكرية وقصصا • وكان على استعداد

دائما لاعارتهـــا بيد أنه لم يطالب باسترادادها أبدا . كمـــا أنه لم يكن من عادته أن يرد كتابا استعاره الى صاحبه . وكان شغله الشاغل هو اطلاق الرصاص من بندقيته الصغيرة . وكانت جدران حجرته تغطيها ثقوب الطلقات فبدت كأنها ثقوب خلية نحل .

ولقد كانت مجموعته الفنية من الاسلحة هي الترف الوحيد في ذلك الكوخ المصنوع من الطين الذي كان يقطنه . ولقـــد أحرز من المهارة في الاصابة مالم يجاره فيه أحـــد الى حد أنه اذا اقترح عليه أن يصيب كمثرى قد ثبتت على قبعة شخص ما ، ماتردد أحد في فرقتنا أن يضع رأســـه تحت تصرفه . وكثيرا ماكان حديثنـــا يدور حول موضوع المبارزات . بيد أن سيلفيو ( هكذا سأسميه ) لم يشترك قط في مثل هذا الحديث ، اذا سأله سائل عما اذا كان قد نازل أحدا ما في يوم من الايام ؛ فانه يجيب بنعم في اقتضاب دون أن يدخل في أية تفصيلات وكانت مثل هذه الأسئلة لا تسره فيما يبدو وقد خلصنا من ذلك الى أنه لا بد من وجود ضحية مسكينة لمهارته الفـــائقة تقلق ضميره . ولم يدر بخلدنا أبدا أن به شيئا من الجبن ؛ فثمة بعض الأشخاص الـــذين يحول مظهرهم دون مثل هذا الظن ؛ ثم حدثت حادثة أخذتنا على غرة .

كنا عشرة من الضباط نتناول طعام العشاء في مسكن سيلفيو . وقد شربنا كثيرا كما اعتـــدنا أن نشرب . وبعد العشـــاء ، طلبنا من مضيفنا أن يحتفظ بالرهان نيابة عنا ، ففعل ذلك واستمر فترة طويلة اذ أنه قلما كان يلعب الورق . بيد أنه أخيرا طلب احضـــار أوراق اللعب ، ورمى بضـــع قطع من النقود ذات الخمس أو العشر روبلات على المنضدة ، وأخذ يوزع الاوراق ، فأحطنا به وبدأ اللعب . لقد كان من عادة ســـيلفيو أن يلوذ بالصمت المطلق أثنـــاء اللعب لا يوضح ولا يستوضح . فاذا ما أخطـــأ من يلعب ضد « لعبـــك » فان سيلفيو اما أن يدفع حالا أو يدون الفائض . وكنا جميعا ندرك هذا ، وكنا نسمح له أن يملي قواعده ، وكان ثمة ضـــابط قد نقل حديثـــا الى فرقتنا . وفي أثناء اللعب رفع هـــذا الضابط الرهان نقطة وهو شارد

الذهن فتناول سيلفيو قطعة من الطباشير وأصلح النقط كما اعتاد أن يفعل . فظن الضابط أن سيلفيو قد أخطأ وراح الضابط يشرح سبب التغيير ، غير أن سيلفيو استمر في اللعب في صمت وهدوء فاستشاط الضابط غيظا وأمسك بالممحاة ومسح ماظنه قد دون خطأ . فأمسك سيلفيو بالطباشير ودون الأرقام ثانية . واعتبر الضابط ، وقد لعبت الخمر والميسر برأسه وأغاظه ضحك زملائه ، انه قد أهين اهانة بالغة وأمسك بشمعدان من النحاس من فوق المنضدة ورمى به سيلفيو الذي لم يحاول الا أن يتفادى الضربة فقلقنا أيما قلق . ونهض سيلفيو واقفا وقد امتقع وجهه من الغضب وتطاير الشرر من عينيه وقال :

ـ ياسيد أرجوك أن ترحل . واشكر ربك أن هذا قد حدث في منزلي .

ولم يخامرنا شك فيما سيترتب على ذلك من نتائج . واعتبرنا الزميل الجديد رجلا ميتا . ورحل الضابط ، قائلا انه سيرد على الاهانة في أي وقت يراه السيد المسئول عن « البنك » . واستمر اللعب بضع دقائق بعد ذلك غير أننا شعرنا بأن مضيفنا لن يستطيع أن يصرف تفكيره الي اللعب ، فتسللنا الواحد تلو الآخر ، ويمم كل منا وجهه شطر مسكنه ، وأخذنا نناقش الصراع الذي نتوقعه قريبا .

وفي اليوم التالي ، أثناء التدرب على الركوب ، أخذ كل واحد منا يسأل الآخر عما اذا كان الملازم المسكين مازال على قيد الحياة ، وفي تلك الأثناء ظهر الضابط فجأة ، فسألناه السؤال نفسه . فأجاب انه لم يتلق اجابة بعد من سيلفيو فذهلنا وذهبنا الى بيت سيلفيو ؛ فوجدناه يطلق النار طلقة اثر طلقة في وسط ورقة ( آس ) من أوراق اللعب قد ألصقها في باب المنزل فلقينا كما اعتاد أن يلقانا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، عن حادثة الأمس ، ومرت أيام ثلاثة وما زال الملازم على قيد الحياة .

أترى سيلفيو لايعتزم النزال ؟ سيلفيو هذا الضابط ولكنه رضى

باعتذار بسيط للغاية وأصلح ذات البين بينه وبين الملازم .

ومن المحتمل أن يكون هذا المسلك قد قلل قدره كثيرا فى أعين الشبان . أما وقد اعتاد الشباب أن ينظر الى الشجاعة كالفضيلة الكبرى التى تغفر جمهرة من الآثام فان آخر شىء يمكن للشباب أن يغفره هو الافتقار الى الشجاعة . الا أن هذه الحكاية ذهبت الى عالم النسيان واستعاد سيلفيو تأثيره القديم .

وكنت الوحيد الذى لم يشعر هذا الشعور نحوه . أما وقد حبتنى الطبيعة بخيال واسع ، فقد كان اخلاصى له يربو على اخلاص غيرى نحو ذلك الرجل الذى كانت حياته لغزا غامضا ، والذى كنت أنظر اليه كبطل قصة يحوطها الغموض . وكان هو بدوره يتعلق بى ، ومهما يكن من شىء فقد كنت الوحيد الذى كان لا يتحرك معه عن ابداء سخريته ودعابته كما كنت الوحيد الذى كان يناقش معه الموضوعات المختلفة فى بساطة وسحر بالغين . بيد أنه لم تفارقنى ذكرى تلك الأمسية السيئة الطالع التى لم يغسل فيها تلك الوصمة التى لصقت بشرفه بارادته الخالصة . لم تفارقنى تلك الذكرى وحالت بينى وبين النظر اليه كما اعتدت أن أراه .

وكنت أخجل من النظر الى عينيه . وكان سيلفيو على قدر من الذكاء والخبرة تجعل فى وسعه أن يلاحظ ذلك ويخمن سببه . ويبدو أن ذلك قد آلمه ، فلقد لاحظت عليه مرة أو مرتين الرغبة فى أن يفتح قلبه لى ، ولكننى تحاشيت مثل هذه الفرص وتركنى سيلفيو لشأنى . ومنذ ذلك الوقت لم أقابله الا فى صحبة الزملاء وهكذا انقضت أحاديثنا الصريحة السابقة .

لا يمكن لسكان المدن الكبرى المدللين أن يدركوا الأحاسيس المألوفة لسكان القرى والمدن الصغيرة مثل انتظار مجىء يوم البريد . وكانت قيادة الفرقة فى أيام الثلاثاء والجمعة تعج بالضباط ... بعضهم فى انتظار النقود وبعضهم فى انتظار الرسائل ، وبعضهم فى

انتظار الصحف . وكانت الخطابات كقاعدة عامة تفتح لحظة تسلمها ، وكانت الاخبار تتبادل ، حتى يصبح منظر المكتب مليئا بالحياة والفرقة ـ وكان سيلفيو الذى يتلقى خطاباته عن طريق الفرقة أيضا ـ يوجد هناك هو الآخر عادة . وفى يوم وصل اليه خطاب فضه وقد بدت عليه لهفة بالغة ، وتوهجت عيناه حينما تصفح محتويات الخطاب بسرعة ولم يلاحظ الضباط أى شىء اذ كان كل منهم مشغولا بقراءة خطابه . فصاح سيلفيو :

ـ أيها السادة . ان الظروف تستدعى رحيلى فى الحال . سوف أرحل هذه الليلة . وأنا واثق أنكم لن ترفضوا العشاء معى للمرة الأخيرة . واسترسل محدثا اياى : وانى منتظرك ويجب أن تأتى .

وغادر سيلفيو القيادة فى سرعة وهو يقول هذه الكلمات . واتفق الجميع على أن نتقابل فى منزل سيلفيو وانصرف كل الى سبيله . وفى الساعة المحددة وصلت الى منزل سيلفيو الكتيبة كلها مجتمعة هناك . وكان سيلفيو قد جمع متاعه ولم يبق شىء سوى الجدران العارية التى تغطيها ثقوب الطلقات وجلسنا الى المنضدة . وكان مضيفنا مرحا ؛ وامتد مرحه الى ضيوفه ، واندفعت السدادات بدويها دون انقطاع ، وهمست الخمر فى الكئوس وعلا زبدها كلما تمنينا للراحل رحلة سعيدة وحظا مواتيا ، ولم تنقطع عن هذا التمنى . وفى ساعة متأخرة من الليل نهضنا حول المائدة . وبينما كنا نأخذ قبعاتنا ، ودع سيلفيو كل واحد منا على حدة ، ثم أمسك بيدى واستوقفنى وأنا أستعد للخروج قائلا فى صوت خفيض :

ـ انى أود الحديث معك فتخلف

فتخلفت عن الباقين .

وانفض المدعوون ، وبقينا وحدنا يواجه كل منا الآخر ؛ وقد أشعل غليونه فى صمت . واغرق سيلفيو فى التفكير ولم يبق أى أثر من آثار مرحه المتقطع ، وكان من أثر شحوبه الحزين ، وعينيه البراقتين ،

وذلك الدخان الكثيف الذى يتصاعد من فمه أن بدا أمامى كشيطان دما ولحما . ومرت بضع دقائق وقطع سيلفيو السكوت قائلا :

ـ من المحتمل ألا تقابل ثانية . وبودى أن أحادثك قبل أن تفترق من المحتمل أنك لاحظت عدم اكتراثى بما يعتقده الآخرون عنى ولكنى أحبك ويؤلمنى أن أتركك ولديك ظن خاطىء عنى .

وتمهل ، وأخذ يحشو غليونه من جديد ، فخفضت بصرى دون أن أنبس بكلمة واحدة . واسترسل قائلا :

ـ قد تظن أنه من الغرابة أننى لم أثشف من هذا المخمور ( ر ) المتصنع للأناقة ولابد أنك متفق معى على أن حياته كانت ملك يدى مادام من حقى أن أختار نوع السلاح ، على حين لم يكن هناك ثمة خطر يهدد حياتى ، ومن الممكن لى أن أدعك تعزو هذا الاعتدال الى مجرد التسامح وغفران أخطاء الناس ، ولكننى لا أريد أن أخدعك ، فلو كان بوسعى أن انزل العقاب بهذا الشخص ( ر ) دون أن أخاطر بحياتى البتة ، ما غفرت له .

فحملقت فيه فى دهشة . وخجلت لاعترافه واستمر سيلفيو يقول :

ـ نعم ... ليس من حقى أن أخاطر بحياتى . فمنذ ست سنوات خلت صفعت على وجهى ومازال عدوى حيا باقيا .

وأثار هذا الكلام حب الاستطلاع فى . وسألته :

ـ ولم لم تنازله ؟ أظن أن الظروف قد فرقت بينكما ؟

فأجاب سيلفيو :

ـ لقد نازلته حقا . ولدى الآن ذكرى هذا النزال

ونهض واقفا وأخرج من صندوق من الورق المقوى قبعة حمراء اللون موشاة ذات زر ذهبى اللون ـ قبعة من النوع الذى يسميه الفرنسيون « قبعة البوليس » ـ ووضعها على رأسه ورأيت أن هناك ثقب

رصاصة تعلو مقدار بوصة عن الجبهة .

وأستمر سليفيو فى الحديث :

ـ أنت تعرف أننى كنت بالفرقة التاسعة بسلاح الفرسان . وأنت تعرف طبيعتى . فلقد اعتدت أن أكون الأول فى كل شيء ، ولقد كان هذا شغلى الشاغل فى شبابى . لقد كان الصخب هو عادة العصر ، وكنت أكثرهم عراكا بالجيش ، وكنا نفخر اذا ثملنا ، وفى مرة شربت خمر بيرستوف الشهيرة تحت المنضدة " تلك الخمر التى خلدها الشاعر دينس دافيادوف ، وكان ثمة عراك فى كل لحظة تقريبا فى فرقتنا ، ولم يكن ثمة معركة الا وكنت اما مشتركا فيها أو مساندا لهذا الطرف أو ذاك ، فعبدنى الزملاء على حين كان ينظر الى قادة الفرقة من الذين كانوا دائمى التغير ـ كشر لابد منه . وكنت أنعم بشهرتى فى هدوء ( وربما كنت مخطئا فى هذا الحكم ) حينما التحق بالفرقة شاب ثرى ، سليل عائلة معروفة لن أذكر اسمها . ولم أر من قبل شخصا قذا مثله حباه القدر بكل ماحباه به مثل هذا الشخص . تخيل بينك وبين نفسك الشباب ، والذكاء ، والجمال والمرح المتدفق ، والشجاعة التى لاتأبه لشيء ، والاسم المدوى ، والمال الذى كان ينفقه عن سعة ، والذى كان يبدو كأنه لن ينتهى ، حاول أن تتخيل الأثر الذى كان لابد وأن يحدثه كل هذا فينا . لقد اهتز لقبى كبطل . حاول هذا الشاب فى مبدأ الأمر أن يصادقنى ؛ وقد استمالته شهرتى ، ولكننى تلقيت محاولاته لمصادقتى فى فتور ، فأقلع عن ذلك دون أى ندم يذكر . فتملكتنى كراهية مريرة نحوه ؛ ولقد أدت بى شعبيته فى الفرقة ، وشعبيته بين النساء الى حالة من الضغط التام وحاولت أن ألتمس سببا للعراك معه ، وكان يعلق على نكاتى بنكات أخرى بدت لى دائما أكثر ذكاء ، وأكثر جدة من نكاتى التى كانت دون شك أكثر مرحا . لقد كان يمزح الا أن سهامى كانت مسممة . وذات مساء وفى حفلة راقصة أقامها مزارع بولندى ،

حينما رأيت أنه محط أنظار السيدات وبوجه خاص سيدة المنزل التي كانت لي معها علاقة تفوهت بدعابة سوقية في أذنه . فاحمر وجهه ولطمني على وجهي . وطارت أيدينا الى مقابض سيوفنا . فأغمى على السيدات وفرق المجتمعون بيننا بعد جهود ، وغادرنا المنزل كي ننازل بعضنا في تلك الليلة ذاتها .

كان الوقت فجرا . ووقفت في المكان المحدود ومعي ثلاثة مساعدون . وانتظرت منافسي في قلق لايمكن وصفه . وكان الوقت ربيعا وبزغت الشمس مبكرة ، وكان الوقت حارا . ورأيته على بعد . لقد كان يسير على قدميه يحمل سترته على سيفه وبصحبته مساعد واحد . فذهبنا لنقابله فتقدم منا وقد أمسك بقبعته المليئة بالكرز . وخطا المساعدون اثنتي عشرة خطوة بيننا . وكان على أن أبدأ بإطلاق النار الا انني كنت أرتعد غضبا الى الحد الذي لم يكن بوسعي أن أعتمد على ثبات يدي ، فتنازلت عن الطلقة الأولى له . الا أن غريمي لم يقبل ذلك ، فقررنا أن نقترع وكان نصيبه الفوز في الاقتراع ، وهو دائما حسن الحظ . فصوب مسدسه وأطلقه واخترقت الطلقة القبعة وجاء دوري . لقد كانت حياته بين يدي . فحملقت فيه بشغف على أن ألاحظ أي أثر بسيط للقلق . كان يواجه مسدسي ، ويختار ثمرات الكرز الناضجة من قبعته ، ويلفظ نواها الذي كاد أن يصل الى مكان وقوفي ، فأثارني هدوءه . فساءلت نفسي ما الفائدة من حرمان شخص من حياة لايقيم لها وزنا ؟ وجالت بخاطري فكرة شريرة ، لقد خفضت يدي التي تمسك بالسلاح قائلا : « اني ألاحظ انك في شغل عن التفكير في الموت . انك تود أن تتناول الفطور وأنا لا أريد اقلاقك » ، ولكنه أجابني قائلا : « انك لن تقلقني بالمرة . أرجوك أن تطلق النار ، ومع ذلك افعل مايحلو لك . انك مدين لي بطلقة وسأكون دائما تحت تصرفك » . فاستدرت الى أتباعي وقلت لهم انني لا أنوي الاطلاق في هذه اللحظة وانتهى النزال عند هذا الحد .

واستقلت من الجيش وأويت الى هـذا المكان الصـغير ومنذ هـذه اللحظة لم يمر يوم دون التفـكير فى الانتقـام ، لقد حانت الساعة ... »

وأخرج سيلفيو خطابا من جيبه تسلمه فى الصباح وأعطانى اياه كى أقرأه . فلقد كتب اليه شخص ما ( من الواضح أنه محاميه ) من موسكو يخبره بأن شـخصا ما ، على وشك زواج مقدس بسـيدة شـابة .

وقال سيلفيو :

ـ أنت الآن تعـرف من هو هذا الشـخص . انى ذاهب الى موسكو وسوف ترى ان كان سيقابل الموت فى ليلة زفافه وهو غير عابىء كما انتظره يوما وبيده قبعة مليئة بالكرز .

وعندئذ نهض سيلفيو ، وألقى بقبعته على الارض وأخذ يذرع الحجرة كنمر سجين . وبقيت دون حراك وظللت أنصت اليه ، وقد أثارتنى مشاعر غريبة متضاربة .

ودخل الخادم ليقول ان الجياد على أهبة الاستعداد ، فشـد سيلفيو على يدى فى قوة ، واحتضن كل منا الآخر ، ودخل العربة ، وكانت تحوى حقيبتين ، فى احداهما أسلحته ، وفى الأخرى متـاعه الشـخصى . وودع كل منا الآخر للمرة الثـانية ، وطارت الخيول واختفت .

ومضت أعوام عدة ، واضطرتنى ظروف عائلية الى السكنى فى قرية فقيرة فى اقليم ( س ) وعلى حين كنت مشغولا بادارة المزرعة لم تفتر حسرتى على حياتى السابقة التى اتسمت بالصخب والبوهيمية وكانت أشق الأشياء على والتى لم آلفها أبدا تلك الوحدة التامة فى أمسيات الخريف والشتاء . وكنت أحاول أن اشغل وقتى بطريقة أو بأخرى حتى ساعة العشـاء بحديثى مع « كبير القرية » أو بالتجول فى عربتى فى الضيعة لأتفقد سير العمل أو زيارة المنشآت التى أنشئت

أخيرا حتى اذا أرخى الليل سدوله كنت لا أعرف كيف أمضى وقتى ، فعرفت عن ظهر قلب محتويات تلك الكتب القليلة التى عثرت عليها فى الحجرات المختلفة وفى المخـزن . لقد قصت على كبريلوفنا مديرة المنزل حصيلتها من القصص المرة تلو المرة ، وبعثت فى أغنيات النساء حالة من الشجى وكان من الممكن أن أتجه الى شرب الخمور القوية ، لو أنها لم تسبب لى صداعا . أضـف الى ذلك أنه يجب أن أعترف صراحة أننى كنت أخشى أن أصبح سكيرا لا لشىء الا للاحساس بالملل ، ومثل هذا النوع من السكيرين هم أسوأ السكيرين قاطبة وقد رأيت منهم عددا لا حصر له فى اقليمنا . لقد كان اثنان أو ثلاثة من هؤلاء التعساء هم كل جيرتى ، وكان الجانب الأكبر من حديثهم سعالا وتنهدات وكانت الوحدة أخف احتمالا من مثل هذه الصحبة .

وكانت الضيعة الكبيرة التى تملكها الكونتيسة ( ب ) على بعد أربعة فراسخ ، ولم يكن هناك أحد غير «الخولى» . اذ أن الكونتيسة لم تزر الضيعة غير مرة واحدة خلال السنة الأولى من زواجها ، ولم تبق حينذاك أكثر من شهر واحد ، الا أن اشاعة انتشرت فى أثناء الربيع الثانى من اعتكافى تقول ان الكونتيسة وزوجها ينويان زيارة المزرعة فى الصيف . وقد حضرا فعلا فى أوائل يونية .

وتعتبر زيارة جار ثرى بداية عهد جديد لحياة سكان الريف . اذ يتكلم المزارعون وخدمهم عن الزيارة شهرين قبل حدوثها وثلاثة أعوام بعدها . أما عن نفسى ، فأعترف أن خبر وصول جارة شابة جميلة كان له أثر قوى فى نفسى فلقد كنت أتحرق شوقا الى رؤيتها والى أن أذهب الى قرية ( ك ) بعد العشاء فى أول يوم أحد بعد وصولها لأقدم نفسى اليها كأقرب جار وخادم مطيع .

وقادنى الخـادم الى مكتبة الكونت ثم ذهب ليعلن مجيئى . لقد أثثت هذه المكتبة الواسعة بترف بالغ . والى الحائط كانت ترتكز رفوف مليئة بالكتب وعلى كل منها تمثال نصفى من البرونز .

وعلى المدفأة مرآة ضخمة ، كانت الارض مغطاة بقماش أخضر

اللون ، وقد انتثرت فوقها الطنافس ، ولأني قد نشـأت دون التعود على الترف في ركني المتواضع ، ولم أر منذ وقت طويل ترف الآخرين ، تملكني الحرج وانتظرت الكونت في قلق وحيرة ، كما ينتظر صاحب حاجة من الأقاليم مقدم الوزير . وفتح الباب ليدخل شاب يناهز الثانية والثلاثين وسيم للغاية . واقترب الكونت مني وقد بدت عليه روح الود والصداقة . وكنت على وشك أن أقدم نفسي اليه ، حتى أستعيد هدوئي ولكنه سبقني الى ذلك .

وجلسنا ، وسرعان ما أزال حديثه الذي كان سلسا مهذبا ذلك الحرج وليد وحدتي الطويلة . وكنت على وشك أن يفارقني الشعور بالحرج حينمـا دخلت الكونتيسة فانتابتني نوبة من الارتبـاك أكثر من النوبة الاولى لقد كانت مخلوقا جميلا حقا . فقـدمني الكونت اليها ، وكم وددت لو ظهرت بمظهر لايدل على الارتبـاك ، ولكني كلما حاولت أن أبدو بمظهر غير المكترث ، زاد حرجي ، ثم أخـذا يتكلمان فيما بينهما ويعاملاني دون كلفة كجـار طيب حتى يعطياني الوقت لأن أستعيد هدوئي ، واعتياد وجودي بين غرباء ، وفي هـذه الأثناء أخذت أذرع الحجرة وأنظر الى الكتب واللوحات ، وكانت معرفتي باللوحات قليلة ، غير ان شيئا ما اسـترعى انتباهي ، فقـد كانت هناك لوحة لمنظر سويسري غير أن الصورة لم تسترع انتباهي بقدر ما استرعاه وجود ثقبين لطلقات نارية أحدهما فوق الآخر .

واستدرت الى الكونت قائلا :

ــ لقد كانت اصابة ممتازة

فأجاب قائلا :

ــ نعم . انها اصابة ممتازة

وسألني : أتجيد الرماية ؟ فأجبته :

ــ انني من الرماة الممتازين

وقد فرحت لأن الحديث قد دار أخيرا حول موضـوع لصيق بقلبي ، ومضيت في الحديث :

ـ انني لا أخطيء ورقة من أوراق اللعب على بعد ثلاثين خطوة من أسلحة قد اعتدناها بالطبع .

فسألتني الكونتيسة وعليها مظهر الاهتمام البالغ :

ـ أحقا ذلك . أيمكنك أن تصيب ورقة لعب على بعد ثلاثين خطوة ياعزيزي .

ومضى الكونت قائلا :

ـ سنحاول ذلك في يوم ما . انني لم أكن راميا سيئا في شبابي ، ومع ذلك فانني لم أمسك بسلاح في يدي طيلة أعوام أربعة

فعلقت على قوله :

ـ آه ... انني على يقين في هذه الحالة أن سعادتكم لن يمكنكم أن تصيبوا ورقة لعب على بعد عشرين خطوة ... ان الرماية تحتاج الى مران يومي ، لقد عرفت هذا من خبرتي . لقد كان ينظر الى على أنني واحد من خير الرماة في فرقتنا . بيد أنني ذات مرة أمضيت شهرا بطوله دون أن ألمس سلاحا ـ اذ كانت أسلحتي قد أرسلت للاصلاح ، وماذا تظن سعادتكم قد حدث ؟ لقد أخطأت اصابة زجاجة على بعد خمس وعشرين خطوة أربع مرات متتالية ، وذلك في أول مرة حاولت فيها الرماية بعد هذا الشهر . لقد كان القائد هناك ، وكان يحب المزاح فقال لي : « ياصديقي ان أي شخص يمكنه أن يعلم أنه ليس في استطاعتك أن تتحمل أن تصيب من الزجاجة مقتلا »

ومضيت قائلا :

ـ يجب على سعادتكم ألا تهمل المران ، والا فستنسى كل شيء تقريبا . ان خير رام عرفته كان يتدرب يوميا ويطلق النار ثلاث مرات قبل العشاء . لقد كانت عادة كاعتياد كأس من الفودكا قبل وجبة من الطعام .

فسألني الكونت :

ـ حدثني عن الرماية .

ـ سأسرد قصة لسعادتكم :

ـ لقد كان أحيانا يرى ذبابة تقف على حائط ـ انى أراك تضحكين ياسيدتي الكونتيسة ، ولكن ما أقوله هو الصدق ، وأقسم على ذلك . حسنا ؟ قد يرى ذبابة فيصيح . كوزكا . أعطني بندقيتي ، فيحضر كوزكا البندقية معبأة . وسرعان ماتتناثر الذبابة على الحائط .

فيصيح الكونت :

ـ عجبا ! وما اسم صديقك هذا ؟

فأجبت :

ـ سيلفيو ياصاحب السعادة

فيصيح الكونت واقفا :

سيلفيو ؟! أتعرف سيلفيو ؟

ـ نعم أعرفه حقا ، ياسيدي .. لقد كنا صديقين حميمين . لقد كنا نلقاه في فرقتنا كأحد أفرادها غير أنني لم أسمع شيئا عنه منذ خمسة أعوام . اذن لقد كنت تعرفه أيضا ياصاحب السعادة !

فيرد الكونت :

ـ نعم . كنت أعرفه . كنت أعرفه جيدا . ألم يخبرك ... عن حادثة معينة شهيرة في حياته ؟

فأجبته قائلا :

ـ أتقصد ياصاحب السعادة تلك الحادثة التي صفعه فيها شاب معجب على وجهه

ـ ألم يخبرك قط باسم هذا الشاب المتأنق ؟

ـ لا ياصاحب السعادة .

ثم بدأت الحقيقة تظهر أمامي فجأة ، فصحت قائلا :

آه ... ياصاحب السعادة معذرة ! أنا لم أعرف انه انت !

فأجاب الكونت وقد بدا حزينا جدا :

نعم أنا . والصورة هـــذه ذات تقبي الطلقات النارية هي ذكرى لقائنا الأخير .

فترد الكونتيـــة :

ـ آه ياعزيزي ... انى استعطفك ألا تتكلم عنه . أنت تعرف أن هذا الأمر يفزعني .

فيقول الكونت :

ـ آه ... ولكنى سأتكلم ... سأقص القصة كلها . انه يعرف كيف أسأت الى صديقه . وليسمع كيف انتقم سيلفيو منى .

وجذب الكونت مقعدا لى واستمعت بشغف لايدانيه شغف الى القصة التالية كما يقصها الكونت :

« تزوجت منذ خمســـة أعوام ، وقضيت هنا فى هذه القـــرية الشهر الاول أى شهر العسل . وانى مدين لهذا المنزل بأسعد ذكريات حياتى كما أننى مدين له بأكثر الذكريات ألما .

، وذات مساء كنت أنا وزوجى نركب الخيل معا ، ولكن جوادها حرن وأبى المسير . فهلعت وأعطتنى لجـــام الحصـــان ، وذهبت الى المنزل سيرا على الاقدام . وســـبقتها الى المنزل على ظهر جوادى . ورأيت عربة فى الفناء وقيل لى ان ثمة رجلا ينتظرنى فى حجرة مكتبى ولكنه رفض أن يدلى باســـمه ، واكتفى بقـــوله بأن لديه أمرا يود نقاشه معى . وذهبت الى الحجرة ورأيت فى ظلامها رجلا مغبرا غير حليق يقف أمام المدفأة هنا فى هذا المكان . فخطوت نحوه وحاولت

أن أتذكر من هو « فقال في صوت مرتجف » : ألا تعرفني ياكونت ؟ فصحت فيه « سيلفيو » والحق يقال اني أحسست بشعر رأسي يقف .

فيرد قائلا :

« نعم انه هو . وهذا دوري لاطلاق النار ! لقد جئت لأطلق بندقيتي . هل أنت على استعداد ؟ » وكان هناك مسدس يبرز من جيب صداره فقست اثنتي عشرة خطوة . ووقفت هناك في الركن ورجوته أن يسرع ويطلق النار قبل أن تعود زوجتي ، فأبطأ وطلب نورا . وأحضرت الشموع . وأغلقت الباب وأعطيت الأوامر بألا يسمح بدخول أحد ورجوته أن يطلق النار مرة ثانية . فأخرج مسدسه وصوب . وأخذت أعد الثواني ... لقد كنت أفكر فيها .. ومرت دقيقة من القلق المريع . وخفض سيلفيو يده قائلا : « اني آسف بأن البندقية غير معبأة بنوى الكرز ، فالطلقات ثقيلة . ولا يمكنني أن أقلع عن التفكير في أن هذا ليس نزالا انما هو قتل ، وأنا لم أعتد أن أصوب مسدسي على أعزل . فلنبدأ من جديد ، ولنقترع على الطلقة الأولى » .

ويسترسل الكونت قائلا :

« لقد دارت رأسي ... ولم أوافق كما أذكر ... وحشونا مسدسا آخر وطوينا ورقتين للاقتراع وضعهما في قبعته التي اخترقتها برصاصتي من قبل . وعدت وسحبت الرقم الفائز فقال « حظك حظ الشيطان نفسه ياكونت » وقد علت وجهه ابتسامة لن أنساها . وليس في وسعي أن أدرك ما الذي اعتراني وكيف سمحت له أن يدفعني الى ذلك ... ولكني أطلقت النار وأصبت هذه الصورة . ( وأشار الكونت الى الصورة وبها ثقوب الرصاص . واشتعلت وجنتاه وشحب وجه الكونتيسة حتى غدا أكثر بياضا من شالها . ولم يكن في استطاعتي أن أكبت صيحة استغراب ) .

ومضى الكونت :

« وأطلقت النار الا أنني أحمد الله على أنني أخطأت الهدف ثم بدأ سيلفيو ... لقد كان منظره مخيفا في تلك اللحظة .... لقد صوب مسدسه نحوي وسرعان ما فتح الباب واندفعت ماشا تصرخ وترتمي على كتفي .ولقد كان وجودها مما أعاد الى هدوئي ، فقلت لها : « ألا ترين ياعزيزتي أننا نمزح . انظري كيف حالك ! اذهبي واشربي كوبا من الماء ثم عودي ثانية الينا . أود أن أقدم صديقي وزميلي اليك » ولكن ماشا لم تصدقني ثم استدارت نحو سيلفيو البائس : « قل لي . هل حقيقة مايقوله زوجي ؟ هل حقيقة أنكما تمزحان ؟ فرد سيلفيو عليها : « هو دائم المزاح ياكونتيسة فلقد صفعني على وجهي مرة وهو يمزح ، ولقد نفذت رصاصة له خلال قبعتي وهو يمزح ، والآن يخطيء الهدف وهو يمزح ، واني لأشعر رغبة من جانبي في المزاح ... »

وبهذه العبارات ؛ بدأ كما لو كان سيصوب مسدسه نحوي ... أمامها وألقت ماشا بنفسها عند قدميه ، فصحت في جنون : « انهضي ياماشا ! ياللعار ! وأنت ياسيد ! هل لك أن توقف سخريتك من امرأة مسكينة ؟ أتنوى أن تطلق النار أم لا ؟ » فرد سيلفيو : « لقد رضيت لقد رأيتك قلقا ، هلعا . لقد جعلتك تطلق النار علي . وهذا يكفيني . سوف تذكرني . اني أتركك لضميرك » .

ثم اتجه نحو الباب ، ولكنه تمهل عند مدخل الباب ، ونظر الى الصورة التي أصبتها وأطلق عليها مسدسه دون أن يصوب تقريبا واختفى . أما زوجتي فقد أغمي عليها . وأما خدمي فلم يجرءوا على ايقافه ونظروا في دهشة اليه ومشى نحو السقيفة ونادى حوذي عربته واختفى قبل أن أدرك ماحدث » .

ولم يزد الكونت عن هذا . وهكذا اكتشفت نهاية قصته ،قد أثرت بدايتها على أيما تأثير . ولم أقابل بطلها ثانية . ويقال ان سيلفيو قاد كتيبة في أثناء ثورة الكسندر ابسيلانتي وقتل في معركة سكوليانى .

# النـدم

**بقلم تشيكوف**

كان الخراط جريجورى بتروف ذا سمعة راسخة كصانع ماهر وكسكير عتيد لايرجى اصلاحه ، ولن يجاريه فى سكره شخص آخر فى كل اقليم خالتشينو ، كانهذا الخراط يصحب زوجته الىمستشفى زمستفو . وكان عليه أن يقود عربته ثلاثين فرسخا ، وكان الطريق شنيعا الى الحد الذى يصعب معه على السائق المحترف أن يقهره ، فما بالنا بشخص كسول مثل الخراط جريجورى .

هبت على وجهه ريح قارسةقاسية وتساقطت الثلوج كقطع كبيرة من السحاب ، وكان من الصعب أن يحكم الانسان ان كان الثلج يتساقط من السماء أو يخرج من الارض . وأصبح من المستحيل رؤية الحقول أو أعمدة التلغراف أو الغابات بسبب الثلج ، واذا ما هبت ريح قاسية جدا على جريجورى لم يكن فى قدرته حتى رؤية عريش العربة نفسه . وكانت الفرس العجوز الضعيفة تتقدم بخطا وئيدة كأنها على قوقعة اذ كانت فى بعض الاحيان تحتاج الى كل طاقتها حتى ترفع حافرها من الثلج العميق وتدفع برأسها الى الامام فى وجهه ...

كان الخراط فى عجلة . وكان يقفز على مقعده فى قلق وهو يلهب ظهر الفرس بسوطه بين حين وآخر .

وتمتم الخراط قائلا :

— لاتبكى ياماتزونا . حاولى أن تتحملى . سنصل سريعا الى المستشفى ، وان شاء الله ، سوف يعتنون بك ، فى لحظة ...

وسيعطيك بافيل ايفانتش بعض النقط أو يأمر بفصدك أو قد يأخذه العطف ويأمر بتدليكك بالكحول الذى سيذهب بالألم فى جنبك كما تعرفين . سيفعل بافيل ايفانتش ما فى وسعه .. سيصيح وسيضرب الأرض بقدميه وعندئذ سيفعل مايمكنه أن يفعل ... وفور وصولنا سيخرج من منزله وسيبدأ فى الشتم ، وسيصرخ « ماهذا ؟ لماذا ؟ لماذا لم تبكر فى الحضور ؟ هل أنا كلب حتى أعنى بكم أيها الشياطين طوال اليوم ؟ لماذا لم تأت فى الصباح ! اخرج ، ولتحضر غدا . » وسأقول له : « أيها السيد الدكتور بافيل ايفانتش ياصاحب السيادة ... »

ويتوقف الخراط ويستحث فرسته :

ـ شى ... شى أيتها الشيطانة ... شى .

ويلهب الخراط الفرس بسوطه ويسترسل فى الكلام على غير هدى دون أن ينظر الى زوجته :

« ياصاحب السيادة .. يشهد الله .... انى لأقسم بالصليب المقدس أننى تركت المنزل فى الصباح ، وكيف يمكن لى أن أصل الى هنا مبكرا حينما يرسل الله فى غضبته عاصفة ثلجية مثل هذه ؟ ويمكنك أن ترى بنفسك .... حتى ولو كان الجواد قويا لما أمكنه أن يصل وجوادى ليس بجواد ـ انظر اليه . انه جواد مخز » وسينظر بافيل ايفانتش غاضبا ويصيح قائلا :

ـ انى أعرفك . انك تجد العذر دائما . أنت بالذات ياجريجورى ! أنا أعرفك جيدا . أعتقد أنك وقفت بالطريق خمس مرات بالحانات وسأرد عليه :

ـ ياصاحب السيادة ! هل أنا وحش لا قلب له ؟ هل أنا كافر ؟ أن زوجتى على وشك أن تفارق زوجها . فهل أتركها تحتضر

وأهرع الى الحانات ! كيف يمكنك أن تقول هذا ! الى الجحيم هذه الحانات !

ثم يخبرهم بافيل ايفانتش بأن ينقلوك الى داخل المستشفى ، وسأنحنى أمامه قائلا :

ـ بافيل ايفانتش ، ياصاحب السيادة ، نحن نشكرك فى خشوع اغفر لنا نحن البلهاء المساكين والخطاة . لا تقس علينا فى حكمك فما نحن الا فلاحون . اننا نستحق الطرد وأنت تخرج فى الثلج لتقابلنا .

وسيرد على بافيل افانتش كما لو أنه على وشك أن يضربنى ، وسيقول :

ـ بدل أن ترتمى عند قدمى يحسن بك أن تقلع عن شرب الفودكا أيها الأبلة ، كما يجدر بك أن ترحم زوجتك العجوز . يجب أن تضرب بالسياط .

فأرد عليه :

ـ تضرب بالسياط ؟ ، بافيل ايفانتش ! الله يعلم أننا نستحق الضرب بالسياط . ولكن كيف يمكننا أن نمنع أنفسنا عن الارتماء عند قدميك والانحناء أمامك وأنت صاحب الفضل علينا . والدنا .... ياصاحب السيادة . انني أقول الحق . الله يشهد على ذلك .... ابصق فى عينى ان كنت كاذبا . ويوم أن تتحسن صحة ماترونيا ، يوم أن تصبح كما كانت ، سأصنع لك أى شىء تتكرم بأن تأمر به . علبة سجائر ان أردت من خشب البتولا المرقط سأصنع لك كرات «الكروكى» والتسعة أوتاد والمدحاة ، كأنها من صنع الخارج ... سأصنع أى شىء لك . ولن أتقاضى منك كوبيكا واحدا . سيأخذون منك فى موسكو أربع روبلات نظير صندوق سجاير مثل هذا ، ولكننى لن أتقاضى كوبيكا واحدا .

وسيضحك الطبيب ويقول :

ـ حسنا . حسنا . كفى ياللخسارة انك سكير .

ويسترسل الخراط فى حديثه :

ـ وأنا أعرف كيف أخاطب السادة أيتها العجوز . ليس هناك سيد الا وأعرف كيف ألعب به . كم أتمنى لو ساعدنا الله ولم نضل الطريق . يالها من عاصفة ثلجية فليس فى استطاعتى أن أرى بسبب هذا الثلج .

ويمضى الخراط فى التمتمة ويدع لسانه يجرى آليا حتى يكبت قلقه ، بيد أنه وان كان لديه الكثير من الكلام ، الا أن الافكار والاسئلة التى كانت تدور فى رأسه كانت أكثر . ولقد استولى الحزن على الخراط على حين غرة ، ولم يمكنه أن يتصرف ولم يستطع أن يتمالك نفسه وأن يعود الى حالته العادية مرة ثانية ، ولم يستطع التفكير . وحتى تلك اللحظة كان يعيش بغير اكتراث يعيش فى نوع من الذهول كذهول المخمور ، ولكنه شعر فجأة بألم مبرح فى قلبه . اذ وجد ذلك السكير الكسول الطروب نفسه فجأة فى موقف رجل مشغول البال ، يرحل على عجلة فى صراع مع الطبيعة نفسها .

ولقد بدأ الحزن ـ كما يذكر الخراط ـ فى الليلة السابقة . فحينما عاد الى منزله فى الليلة الماضية مخمورا كعادته وبدأ كعادته القديمة يسب ويلوح بقبضتيه ، نظرت الزوجة الى طاغيتها كما لم تنظر اليه من قبل . لقد كان التعبير المعتاد فى عينيها العجوزتين تعبير استشهاد ووداعة كتعبير كلب قد ضرب بسخاء وأطعم بشح ، ولكن عينيها الآن أصبحتا قاسيتين ساكنتين كعيون القديسين فى الايقونات أو كعيون أناس يحتضرون . ولقد بدأ الحزن الذى انتاب الخراط بهاتين العينين الغريبتين المقلقتين ، ولقد استعطف الخراط المشدوه جارا له أن يقرضه جواده وهو الآن يأخذ زوجته الى المستشفى لعل باڤيل ايفانتش بمساحيقه ودهانه أن يعيد التعبير المألوف الى عينى زوجته المسنة .

وتتمتم الخراط :

ـ انتبهي ياماترونيا . اذا سألك بافيل ايفانتش ان كنت أضربك فقولي لا ! لا ياسيدي ! وسوف لاأضربك ، أقسم بالصليب الطاهر أنني لن أضربك . أنت تعرفين . فأنا لم أكن متعمدا حينما كنت أضربك . انني لم اضربك الا لأنني لا أملك شيئا أفضل من هذا يمكن أن أفعله ، فأنا مغرم بك . ان أي رجل آخر لن يعبأ بالامر ، ولكنني آخذك الى المستشفى.... انني أفعل كل مايمكن عمله . وفي عاصفة ثلجية مثل هذه. فلتكن ارادتك يا الهي ! كم أتمنى أن يساعدنا الله ولا نضل الطريق . كيف حال جنبك الآن يا ماترونيا ؟ لماذا لا تقولين شيئا ؟ اني أسألك ـ أيؤلمك جنبك ؟

وظن أنه من الغرابة ألا يذوب الثلج على وجه المرأة المسنة ، انه من الغريب أن الوجه نفسه قد استطال ، وأصبح لونه في لون التراب أو الشمع الملوث ، وبدا الوجه قاسيا جادا .

فتمتم الخراط :

ـ أيتها العجوز البلهاء ـ اني أسألك جادا وليشهد الله وأنت ..... أيتها العجوز البلهاء ، لن آخذك الى بافيل ايفانتش ـ مارأيك ؟ وهنا ترك العنان لفرسه وترك العنان لأفكاره . ولم يجرؤ أن يستدير وينظر الى المرأة العجوز ـ لقد اعتراه شعور بالخوف . فلقد أخافه أن يظل يسألها دون أن تجيب ..... وأخيرا ، وليضع حدا لهذه الحيرة تحسس يدها الباردة دون أن ينظر اليها وحينما تركها ، ارتمت اليد كأنها حجر .

. انها ميتة ! يا للخسارة ! يا للخسارة . .

ويبكي الخراط . ولم يشعر الخراط بالحزن مثلما شعر بالغضب يا للسرعة التي تحدث بها الاشياء في العالم . هكذا

ظن . فلم يكد أسفه يبدأ حتى انتهى كل شيء . ولم يكد يبدأ حياة جديدة مع زوجته العجوز ، ولم يكد يفتح قلبه لها ويوليها عطفه حتى ماتت ... لقد عاش معها أربعين عاما ومرت هذه الاربعون عاما فى نوع من الضباب . فلقد مرت الحياة دون أن يفطن اليها نتيجة للسكر والعراك والحاجة ... وتوفيت المرأة العجوز فى اللحظة التى بدأ يشعر فيها أنه يحبها وأنه لايمكن أن يحيا بدونها ، وأنه قد أخطأ فى حقها كثيرا ..

وتذكر الخراط « لقد اعتادت الاستجداء ـ لقد أرسلتها تستجدى الناس ... لقد أرسلتها تستجدى الخبز .

ويحى ! ويحى ! كان من الممكن للمسكينة البلهاء أن تحيا عشر سنوات أخرى وهى الآن تعتقد أننى من هذا النوع حقا أيتها العذراء الطاهرة ! الى أين أنا ذاهب ؟ ان ما تحتاج اليه الآن هو الدفن لا الطبيب » . واستحث فرسه على السير .

وأدار جريجورى رأس الفرس وأخذ يضربها بكل قوته . وازداد الطريق سوءا ساعة بعد ساعة ولم يعد فى استطاعته أن يرى عريش العربة اطلاقا ، وأخذت الزحافة تصطدم بأشجار الصنوبر الصغيرة بين الحين والآخر ، وخدش جسم داكن يد الخراط ومر سريعا أمام عينيه ، وللمرة الثانية لم ير أى شيء وكل الذى رآه بياض يدور كدوامة .

وفكر الخراط ، لو كان فى وسع المرء أن يبدأ الحياة من جديد

وتذكر أنه منذ أربعين عاما مضت كانت ماتروينا شابة جميلة مرحة وأنها قد انحدرت من عائلة تعيش فى رغد من العيش . لقد زوجوه اياها لمهارته . وكانا يملكان كل مايجعل الحياة سعيدة ، ولكنه منذ اللحظة التى انتهى فيها الزفاف ، رمى نفسه ، فاقد الوعى من أثر الخمر على حافة الموقد وبدا كأنه لن يصحو وهو فى وعيه

فهو يذكر الزفاف الا أنه لايذكر اطلاقا ماحدث بعده سوى السكر والنوم ، والشجار . وهكذا انقضى أربعون عاما .

وبدأت غمائم الثلج المتساقطة البيضاء تأخذ لونا ترابيا بالتدريج لقد بدأت الظلمة فسأل الخراط نفسه للمرة الثانية : « الى أين أنا ذاهب ؟يجب أن أدفنها وبالرغم من ذلك ها أنا أمضي نحو المستشفى . لابد وأني فقدت صوابي .. »

وأدار رأس الفرس ثانية ، وضربها فاستجمعت الفرس كل قواها ونفخت من أنفها – وبدأت تعدو ... وسمع صوت ارتطام وراءه ، وعرف دون أن ينظر الى الخلف أن رأس الجثة كانت ترتطم بحافة الزحافة . وأخذ العالم يزداد حلكة والريح تزداد برودة وقسوة ... وفكر الخراط ، يجب أن يبدأ المرء الحياة من جديد . سأشترى لنفسى عددا جديدة وأقبل الطلبات ... وأعطيها النقود ... نعم ، .

ثم ترك عنان الفرس وبدأ يبحث عنه ، ثم التقطه ولكن دون جدوى ، ان يديه لاتتحركان ... ثم فكر « لاتهتم ... ستقود الفرس نفسها فهى تعرف الطريق . بودى لو حظيت باغفاءة الآن ... بودي لو استرحت حتى يحين موعد الجنازة والصلاة ، وأغمض الخراط عينيه ونام ، وبعد قليل سمع الفرس وهى تقف ، وعندما فتح عينيه وجد نفسه أمام شيء أسود قد يكون كوخا أو كومة من القش .

وكان يعرف أنه ينبغى عليه أن ينزل من الزحافة يستكشف مكانه ، ولكن كان ثمة خمول فى أطرافه ، لايمكن معه أن يتحرك حتى ولو أراد أن ينقذ نفسه من التجمد حتى الموت ... ونام فى هدوء وسكينة .

وصحا فى حجرة كبيرة قد طليت جدرانها بالجير . وكانت أشعة الشمس الساطعة تنساب خلال النافذة . وكان بوسع الخراط أن يرى أن ثمة أشخاصا بالحجرة ، ولذلك كانت أول فكرة خطرت له أن يبدو وقورا عليما .

فقال « تجب الصلاة على العجوز ، ويجب اخبار الكاهن »

ويقطع عليه صوته صوت ما :

ــ حسنا ! حسنا ! لاتتحرك

فيصيح الخراط فى دهشة حينما يرى الطبيب فجأة :

ــ غريبة ! انه بافيل ايفانتش . ياصاحب السيادة ! ياصاحب الفضل !

وحاول أن يقفز من فراشه وأن يسحبه أمام الطبيب ولكنه شعر بأن يديه لاتطيعانه .

ــ ياصاحب السيادة أين قدماى ؟ أين يداى ؟

فيرد عليه صوت ما :

ــ قل وداعا ليديك وقدميك ... لقد تجمدت . كفى . كفى لماذا تبكى ؟ لقد عشت كثيرا فاحمد الله على ذلك ! اعتقد أنك فوق الستين . لقد عشت كثيرا .

ــ ياللويل ياللويل . ياصاحب السيادة . معـذرة . بودى لو عشت ست سنوات أخرى .

ــ لماذا ؟

ــ لم يكن الفرس فرسى وسأرده ثانية .. يجب أن أقوم بدفن زوجتى العجـوز . آه كم تمضى الأشياء بسرعة فى هـذا العالم . ياصاحب السيادة ! بافيل ايفانتش . صندوق سجاير من أحسن خشب البتولا المرقط ! سأصنع لك مجموعة كروكى ...

وخرج الطبيب من الحجرة وهو يلوح بيده ، لقـد انتهى كل شىء بالنسبة للخراط .

# موت كاتب

## بقلم تشيكوف

لقد كانت ليلة رائعة حينما جلس الكاتب الممتاز ديمتريش شيرفياكوف في الصف الثاني في الصالة يستمتع «بأجراس كورنفيل» بمساعدة منظار الأوبرا . وأخذ يراقب المسرح وهو يظن نفسه أسعد المخلوقات، وفجأة — .. لقد أصبح التعبير «وفجأة» أحد التعبيرات المبتذلة الرخيصة ولكن ألا يمكن للكتاب أن يقلعوا عن استعماله والحياة مليئة بالمفاجآت ! — وفجأة اذن زم وجهه ودارت عيناه نحو السماء وتوقف تنفسه ... وأدار وجهه بعيدا عن منظار الاوبرا ، وتكور في مقعده و ... أتش . أي بعبارة أخرى عطس . ولكل فرد الحق في أن يعطس حيثما يشاء . اذ يعطس الفلاحون وضباط البوليس وحتى أعضاء مجلس الوزراء أنفسهم يعطسون . فكل فرد يعطس — كل فرد . لم يشعر شيرفياكوف بأي حرج ، ومسح أنفه بمنديله والتفت حوله كأي شخص مهذب ليرى ان كان عطسه قد سبب أية متاعب لغيره من الناس ، وفي هذه اللحظة شعر بالارتباك ، اذ رأى رجلا عجوزا ضئيل الجسم يجلس أمامه تماما يمسح رأسه الاصلع وعنقه بعكازه في عناية ، ويتمتم في أثناء ذلك . وأدرك شيرفياكوف أن هذا الشيخ ماهو الا بريزهالوف المدير العام بوزارة المواصلات .

وفكر شيرفيالوف ، لقد عطست عليه .. حقيقة أنه ليس رئيسي بيد أنه أمر يدعو الى الاحراج . يجب أن أعتذر اليه .

فمال شيرفياكوف الى الامام وتنحنح وهمس في اذن المدير العام :

— « اني أعتذر اليك ياصاحب السعادة . لقد عطست . ولم أقصد أن .. »

— لا شيء .

ـ أرجوك أن تغفر لى . أنا ... انها غير مقصودة .

ـ أليس فى وسعك أن تسكت ، بحق السماء دعنا نستمع .

وابتسم شيرفياكوف فى جبن وضعة وقد اعتراه بعض القلق ، وحاول أن يركز انتباهه على المسرح ويراقب الممثلين ؛ ولكنه لم يعد يشعر بانه أسعد المخلوقات ، لقد التهمه الندم ، وخطا نحو بريزهالوف فى الاستراحة وتسهل بعض الوقت ثم تغلب على حرجه وتمتم أخيرا :

ـ لقد عطست عليك ياصاحب السعادة .. اغفر لى .. فأنت تعرف ... انى لم أقصد ...

ـ آه .. أحقا .. لقد نسيتها . أتقصد أن تستمر فى ذلك .

وكان ذلك رد المدير العام ، وقد أخذت شفته السفلى تتحرك فى ضيق .

الا أن شيرفياكوف أخذ يتأمل وهو ينظر فى اتجاه المدير حائرا شاكا . وهو يقول انه نسى ولكنى لا أحب النظرة فى عينيه ، انه لم يرد أن يتكلم معى . يجب أن أوضح له أننى لم أقصد ... ان هذا هو أحد قوانين الطبيعة ؛ والا فسيعتقد أننى كنت أقصد أن أبصق عليه . وحتى لو لم يعتقد هذا الآن ، فقد يعتقده فيما بعد ... !

وحينما عاد الى منزله قص على زوجته سلوكه غير الحميد . وبدا له أن زوجته قد تلقت قصته فى استخفاف غير ملائم . حقيقة انها هلعت لحظة من الزمن ، ولكنها حينما عرفت أن بريزهالوف ليس « رئيسا » اطمأنت .

وقالت له :

ـ أعتقد أنه ينبغى عليك أن تذهب وتعتذر برغم هذا كله ، والا فسيعتقد أنك لا تعرف كيف تسلك فى حضرته ...

فرد عليها :

ـ فعلا . لقد حاولت أن أعتذر . ولكنه كان غريبا . ولم يقل أية

كلمة تدل على الحكمة . أضف الى ذلك أنه لم يكن هناك وقت للكلام.

وفي اليوم التالي ارتدى شيرفياكوف حلته الرسمية الجديدة ، وقص شعره وذهب ليوضح سلوكه لبريزهالوف . لقد كانت حجرة استقبال المدير مليئة بأصحاب الحاجات وكان المدير نفسه هناك يتلقى الالتماسات . وبعد أن خاطب المدير بعض أصحاب الالتماسات ، رفع عينيه الى وجه شيرفياكوف فبدأ الكاتب يقول :

ـ ليلة أمس في الاركاديا ، اذا كنت تذكر ياصاحب السعادة ... عطست .. وحدث أن .. اني أطلب ..

فيرد المدير :

ـ يا للسخف ... ما الذي يمكن أن أفعله لك ؟

ويشحب وجه شيرافياكوف ويقول في نفسه :

ـ هو لا يريد أن ينصت الى . وهذا يعني أنه غاضب .. أنا لايمكن أن أترك الموضوع هكذا .. يجب على أن أوضح ..

وحينما فرغ المدير من تلقى الالتماس الاخير ، استدار ليذهب الى مكتبه الخاص . فتبعه شيرياكوف وهو يتمتم :

ـ أتسمح لي ياصاحب السعادة . ان ما يدفعني الى اقلاق صاحب السعادة هو ندمي النابع من قلبي .

ونظر المدير كأنه على وشك أن يصيح وحرك يديه كي يغرب عنه . وأغلق الباب في وجهه وهو يقول :

ـ أتريد أن تسخر مني يا سيد

فيفكر شيرفياكوف :

ـ أسخر منك ! اني لا أرى ما يثير السخرية . انه لا يفهمني ..

وهو المدير • حسنا لن أقلق السيد المهذب باعتذاراتي • فليأخذه الشيطان • سأكتب خطابا اليه • لن أذهب اليه مرة ثانية • لن أذهب • وهذا نهاية الأمر •

هكذا كانت أفكار شيرفياكوف وهو عائد الى منزله • ولكنه لم يكتب الخطاب، وظل يفكر ويفكر ولكنه لم يعرف كيف يصوغه • ومن ثم كان عليه أن يذهب الى المدير العام فى اليوم التالى حتى يصحح الاوضاع •

وقال حينما أدار المدير نحوه عينا فاحصة :

ـ لقد تجرأت وأقلقتك بالامس ياصاحب السعادة ، أنا لم أضحك عليك كما اعتقدت يا صاحب السعادة • لقد جئت أقدم اعتذاراتى لمضايقتك بعطسى ••• أما عن الضحك عليك فلا يمكن أن أفكر في مثل هذا الشىء كيف أجرؤ على التفكير ! لأننا اذا وضعنا فى رؤوسنا أن نضحك على الناس فلن يبقى أى احترام ••• أى احترام للرؤساء • فعوى المدير •• وقد امتقع وجهه وأخذ يرتجف غضبا :

ـ اخرج من هنا • اخرج من هنا ••

كررها المدير وهو يضرب الارض بقدمه •

وشعر شيرفياكوف كأن شيئا ما قد قطع بداخله • فلم يسمع أو ير شيئا وهو يتراجع نحو الباب ، وخرج الى الشارع وظل يجول متعثرا ووصل الى منزله دون أن يدرى ، وارتمى على الاريكة كما هو بحلته الرسمية ومات ••

# هيئة قناة السويس

## مناقصة عامة

تطرح هيئة قناة السويس لمناقصة عامة عملية تركيب خط من مواسير الظهر قطر ٤٠٠ ملليمتر بشارع محمد على بين شارع السلطان حسين ومنطقة مستشفى الهيئة بالاسماعيلية ويمكن الحصول على مستندات المناقصة للحضور شخصيا قسم التخطيط والابحاث بالاسماعيلية وذلك نظير دفع مبلغ ثلاثة جنيهات وتقدم العطاءات باسم السيد رئيس هيئة قناة السويس (التخطيط والابحاث) بالاسماعيلية فى ميعاد اقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم الثلاثاء الموافق ١١ سبتمبر سنة ١٩٦٢ على ان تكون مصحوبة بتامين ابتدائى وقدره ٢٠٠ جنيه

ولن يلتفت الى اية عطاءات تقدم بعد التاريخ الموضح اعلاه او غير مصحوبة بالتامين الابتدائى المذكور .

١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج
تليفون ٤٠٥٨٨ – ٤٠٧٥٣ – ٤٠٨١٤ – ٤١٠١٢

١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج

تليفون ٤٠٥٨٨ ـ ٤٠٨١٤ ـ ٤٠٧٥٣ ـ ٤١٠١٢ ـ ٤٥٣٤٦

العدد ١٦٣